الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم
University of Mostaganem - Abdelhamid Ibn Badis
كلية الأدب العربي والفنون
Faculty of Arabic Literature and Arts
FLAA
UNIVERSITE Abdelhamid Ibn Badis MOSTAGANEM

الرقم: 337 /ن ع ب ت/ك.أ.ع.ف/ج.م/2025 قسم الدّراسات اللّغوية والأدبية

مطبوعة الأمالي في مقياس: الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر تخصص نقد حديث ومعاصر

إعداد الدّكتورة خضار سماحية :أستاذة محاضرة- أ جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم

مصادقة رئيس القسم	أ.د عمّور شامخي رئيس قسم الدراسات اللغوية و الأدبية
مصادقة رئيس اللجنة العلمية	أ.د نور الدين محمد رئيس اللجنة العلمية لقسم الدراسات اللغوية و الأدبية
مصادقة رئيس المجلس العلمي	أ.د مليكة فيلالي رئيس المجلس العلمي لكلية الأدب العربي و الفنون
مصادقة عميد كلية الأدب العربي والفنون	دكتور: بن دحمان عبد الوهاب عميد كلية الأدب العربي و الفنون

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم
University of Mostaganem - Abdelhamid Ibn Badis
كلية الأدب العربي والفنون
Faculty of Arabic Literature and Arts

الرقم: 41/ن ع ب ت/ك.أ.ع.ف/ج.م/2025

شهـــادة إداريـــة

بعد الاطلاع على التقريرين الإيجابيين ،**صادق المجلس العلمي** على اعتماد الأمالي الخاص بالدكتور(ة) **:خضار سماحية** ، أستاذة بقسم الدراسات اللغوية والأدبية، كلية الأدب العربي والفنون والموسوم بـ : **محاضرات في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر**، محاضرات موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر،تخصص نقد حديث ومعاصر.

مستغانم يوم: 2025/02/ 26

رئيس المجلس العلمي
رئيس المجلس العلمي
لكلية الأدب العربي و الفنون
المجلس العلمي للكلية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم
كلية الأدب العربي والفنون
قسم الدراسات اللغوية والأدبية

مطبوعة الأمالي في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

محاضرات موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر

تخصص: نقد حديث ومعاصر

إعداد الدكتورة:

سماحية خضار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم، محمد بن عبد الله وعلى اله وصحبه ومن والاه، وبعد؛

لا شك أن حاجة طلبتنا باتت ملحة للاطلاع على الخلفيات التاريخية والاجتماعية والفنية، والموضوعاتية التي انبنى عليها الأدب الجزائري الحديث والمعاصر بالنظر إلى الأهمية التي اكتساها هذا الأخير على الصعيد المحلي، الإقليمي، العربي، والعالمي. وإذ نسعى من خلال تقديمنا لهذه المحاضرات إلى تسليط بؤرة النور على دور الإبداع الجزائري الذي واكب بدايات العصر الحديث وصولا إلى أيامنا هذه مصورا تفاصيل حياة الجزائري في مختلف المراحل الزمنية، فإن الهدف الأسمى هو أن يتعرف طلبتنا بيسر على أدب بلادهم ويقبلوا على قراءته وتحليله ونقده ومدارسته بينهم من خلال جميع فنونه المنظومة والمنثورة.

مقدمـــــــة

تظافرت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية لتجعل من الشعب الجزائري على مدار قرنين من الزمان صانعا لحدث، مهاجنا للجميع، ولتصل حس الإبداع لدى الكتاب والشعراء ولدى كل من يعمل لواء التعبير الأدبي والفني؛ فالمتأمل لتاريخ الجزائر الحديث يجده متنوعا وثائرا خاصة في الوقت الذي ظن فيه الجميع أن هوية الأمة الجزائرية إلى زوال وقد حلت محلها هوية لأمة أخرى تدّعي حقها في الأرض بالقوة والجبروت.

وكما تشبثت الأمة الجزائرية بأرضها منذ 1830، فقد حافظت أيضا على أصالتها، وهذا ما عكسه التراث الأدبي على مر التاريخ. وذلك على الرغم من جهود المستعمر المضنية من أجل القضاء على أي أثر للثقافة الجزائرية؛ وما الآثار الأدبية التي وصلت إلينا والتي خلّدت ما عاشه الجزائري أثناء فترة الاستعمار وقبله إلا شاهدا ودليلا، فضلا عن نصوص كثيرة تعرضت للإتلاف والخراب من طرف المستعمر والزمن للأسف.

وعلى الرغم من المضايقات التي تعرض إليها المبدع الجزائري تميزت بدايات القرن التاسع عشر بوجود عديد الأدباء الذين طبعوا بصماتهم، وخلدهم تاريخ الجزائر الثقافي لولا سياسة النفي التي انتهجتها فرنسا الاستعمارية لكثير من أعلام الجزائر، والتي كان من شأنها أن تؤثر سلبا في تلك المرحلة فشاعت إلى حد ما مظاهر الجهل والأمية والخمول.

لكن، ومع بدايات القرن العشرين بدأ دبيب النشاط الفكري يسري في الجسد الثقافي للجزائر، مبشرا بثورة أدبية مرموقة فجرتها الطاقات الكامنة للشعراء والمصلحين والأدباء والقصاص وغيرهم، إذ تحملوا أعباء النهضة، ومقاومة الاحتلال بشتى وسائل الكفاح المتاحة، فنجحوا إلى حد بعيد -بين شد وجذب- إلى أن قامت ثورة التحرير الكبرى التي اعتمدت السلاح كما اعتمدت الأدب الذي خلد بطولاتها وشحذ همم ثوارها.

وقد رمنا من خلال هذه المحاضرات الموجهة إلى طلبة الماستر 2 في تخصص نقد أدبي حديث ومعاصر لمادة الأدب الجزائري الحديث والمعاصر أن نُطلع الطلاب على أهم أعلام الأدب الجزائري في هذه المرحلة، وأشهر المؤلفات الفكرية والأدبية التي خلّدتها؛ على أمل أن يزداد الاهتمام بالأدب الجزائري الذي مازال يحتاج إلى التنقيب في ذرره من طرف الباحثين التائقين إلى المغامرة والاستكشاف.

المحاضرة الأولى:

مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

المحاضرة الأولى: مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

تمهيد:

يدخل ضمن الأدب الجزائري كل منظوم ومنثور أنتجه أدباء الجزائر منذ نشوء الدولة الجزائرية الحديثة إلى يومنا، إذ يعد كثير من الدارسين تاريخ دخول الاستعمار الفرنسي(1830) للجزائر تاريخا لنشوء الدولة الجزائرية الحديثة؛ إذا اعتبرت الجزائر قبل هذا التاريخ إيالة من إيالات الدولة العثمانية وتابعة لها سياسيا.

وإذا انتقلنا إلى مصطلح الحداثة التي توسم به المحاضرات في شقها الزمني الأول؛ فإن الحداثة من الحديث، ويعني به كل ما هو حديث الوجود زمنيا، وقد جاءت اصطلاحا من اللفظة الأجنبية (Modernisme) وهو مصطلح حديث "يدل على الجديد والميل إلى المعاصرة، وليس مذهبا معينا ولكنه اتجاه جديد مهمته مصارعة القديم باسم الجديد، والتحرر من إسار القوالب والمضامين التي مضى عليها الزمان"[1]، وكثيرا ما ترتبط الحداثة بالمعاصرة، فيرتبط كل منهما بالآخر، ومن الدارسين من يساوي بينهما؛ فكل أدب حديث هو أدب معاصر مادام فيه تجديد وابتكار.

أما عندما نقول أدب جزائري حديث فإننا نعني كل أدب -نظما كان أو نثرا- أُنتج خلال العصر الحديث للدولة الجزائرية الحديثة؛ ويتعلق الأمر بالقرنين الماضيين؛ أي منذ احتلال فرنسا لأرض الجزائر، لأن الهوية بدأت معالمها في الظهور منذ تلك

[1] محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية- بيروت، ط2، 1999، ص 349

المرحلة التي تعد قريبة العهد نسبيا بالنسبة للمرحلة المعاصرة؛ إذ لا يمكن إدراجها في إطار الأدب الجزائري القديم. ولا يفوتنا أن نذكر هاهنا أن الحداثة في الأدب العربي عدّ أغلب الدارسين بداياتها مع حملة نابوليون على مصر سنة 1799، والتي لا تبعد زمنيا عن تقويم الحداثة في الجزائر.

أما مصطلح المعاصرة الذي يمثل الجزء الثاني من تسمية المحاضرات، فهو مشتق من العصر؛ أي أنه ينتمي إلى العصر الذي نعيشه ونتفاعل فيه ومعه، والأدب المعاصر هو الأدب الذي أنتج في العصر الحاضر، والمعاصر بالمفهوم الأدبي القديم "هو الشاعر أو الحدث الذي يعاصر شاعرا أو حدثا، و ينبغي بالتالي أن يتميزا بصفات متشابهة، فالبحتري معاصر لأبي تمام، وأبو فراس معاصر المتنبي، كما أن الشعوبية عاصرت نكبة البرامكة"[1] ، ومنهم من أضاف خمسين سنة إلى الوراء أي أنّ المعاصرة هي ما نعاصره حاليا زائدا خمسون سنة إلى الوراء، وإن توفي الأديب أو الشاعر.

2- نبذة عن الحركة الفكرية والثقافية والسياسية الحديثة والمعاصرة في الجزائر:

إنّه ليس بالأمر الهين أو المتاح أن نتحدث عن حال الفكر والثقافة والسياسة خلال هذه المرحلة؛ من حيث إنها مرحلة طويلة معقدة المسارات ومتعددة الأحداث شكلت شخصية الشعب الجزائري المتفردة نظرا لتنوعها وقساوتها في آن.

شهد الكثير من المؤرخين على أن الاستعمار الفرنسي عندما دخل إلى الجزائر -التي كانت قبله إيالة عثمانية تخضع لحكمها- وجد أغلب الشعب الجزائري متعلما بعدد لا

[1] محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، مرجع سابق، ص802

يحصى من المكتبات، وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم وعدد من المستشرقين والرحالة الذين زاروا الجزائر آنذاك، لكن، وبعد أن تغير الحال وأصبحت الجزائر مقاطعة فرنسية، أحرقت الكتب مع أصحابها في كثير من الحواضر الجزائرية، على الرغم من أن الجزائريين بذلوا جهودا في الحفاظ على إرثهم العلمي والأدبي لكن وحشية الاستعمار كانت أقوى من إصرارهم؛ حيث لم يبق اليوم من ذلك الإرث إلا ما احتفظ به في بعض الزوايا الصوفية والبيوت القديمة أو ما هو مسروق ومعروض في متاحف فرنسا التي وجدت مقاومة شرسة منذ دخولها من طرف الشعب الذي لم يتوان في الدفاع عن أرضه وعرضه وهويته، غير أنه لم يصلنا ما يشفي الغليل من الأدب الذي خلد البطولات والمعارك نظرا للمؤامرات القذرة للمستعمر وسياساته، وكذا طول مدة بقائه في أرض الوطن الطاهرة؛ ولم ينج منها إلا ما رحل مع الأمير عبد القادر وحاشيته إلى المنفى، أو نزر قليل تناقلته بعض الكتب.

ومع بدايات القرن العشرين دخلت الجزائر مرحلة جديدة في تاريخها تغيرت معه موازين القوى، وتغير المستوى الفكري والثقافي في أوساط الشعب نتيجة للعزيمة القوية والمعدات البسيطة التي حارب بها الجزائري شراسة السياسة الفرنسية فتغيرت الحياة الثقافية والفكرية لصالحه، بعد أن هاجر عدد لا يستهان به إلى تونس والقاهرة لطلب العلم، وتأسست الأحزاب السياسية والجمعيات الفكرية، وأُصدرت المجلات والصحف باللغة العربية والفرنسية من أجل نشر الوعي بين الجزائريين الذين أنهكهم الاستعمار الطويل لبلادهم. كما أن الجهد الذي بذلته جمعية العلماء المسلمين في تنوير عقول

الجزائريين وتصحيح معتقداتهم كان له الأثر البارز في تحقيق المبتغى الأسمى وهو الاستقلال، لأن الاستقلال الفكري هو الذي ولّد فيما بعد الاستقلال السياسي بفضل الثورة الكبرى التي أرغمت الاستعمار على الاندحار من بلادنا في جويلية 1962.

المجلس العلمي للكلية

و قد نجح الأدب الجزائري في تجاوزه مراحل زمنية متغيرة الأحداث سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، عبّر في كل مرحلة عن آلام وأمال الشعب الجزائري قبل الثورة وأثناءها وبعدها، إلى سنوات الاستقلال التي جلبت معها تحديا آخر كادت فيه الفتنة والاختلاف بين الأخوة أن يفتك بالبلد، فمرحلة السبعينات بخصوصيتها، ثم فترة الأزمة الوطنية وما خلفته من آثار وندوب على كل الصعد. ولا يزال الأدب الجزائري المعاصر يترجم التغير الحاصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بناء على التغيرات التي يشهدها راهن الوطن والمجتمع؛ و"ليس غريبا أن يؤسس الكاتب ويجرّب في الوقت نفسه، والنص المعاصر لا يحدد من خلال الشكل وحده، وإنما من خلال الشكل والمضمون معا... وهل يمكن أن يكون الناص إلا عصريا؛ بيد أن هذا لا يمنع أن يعيش عصره مشدودا في الوقت ذاته بحبال عصور غبرت من خلال ارتباطه بالماضي بحكم الثقافة التراثية"[1].

وبعد هذه المحاضرة التي قدمنا فيها مدخلا مقتضبا عن الأدب الجزائري الحديث والمعاصر دون أن نحدد جنسه، وامتثالا لمفردات المادة، وللبرنامج المرفق مع محاضراتها

[1] ينظر: عبد الغاني خشنة، إضاءات في النص الجزائري المعاصر، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط1، 2013، ص 08

حرصنا على تقسيم المطبوعة إلى شقين اثنين؛ شق خصص للمنظوم من الأدب الجزائري، وشق للمنثور منه، حيث سيظهر الفرق في عدد المحاضرات واضح بينهما نظرا لتفوق النثر في مجموع الفنون المنضوية تحت لوائه على حساب الشعر الذي يُحسب له السبق لا الفيض.

المجلس العلمي للكلية

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم
المجلس العلمي للكلية

أولا:

الشعر الجزائري الحديث والمعاصر

المحاضرة الثانية: لمحة حول الشعر الجزائري الحديث

(الدور، والمحطات التاريخية)

المحاضرة الثالثة: الاتجاه الإصلاحي في الشعر الجزائري

المحاضرة الرابعة: الاتجاه الثوري في الشعر الجزائري

المحاضرة الخامسة: الاتجاه الوجداني في الشعر الجزائري

المحاضرة الثانية: لمحة حول الشعر الجزائري الحديث

(الدور، والمحطات التاريخية)

1-تمهيد:

عرفت الجزائر -بعد أن وطئتها أقدام الفرنسيين مطلع القرن التاسع عشر- فراغا فكريا وثقافيا وتواصليا رهيبا، حتى كادت عناكب الإهمال والنسيان تنسج خيوطها على تراثها الأدبي والعلمي؛ إذ تمكنت بعد مشقة وعسر أن تنهض بفضل رجالها الأمجاد من نوم عميق كاد أن يفتك بأصالتها وتاريخها، ويمحوها من صفحة التاريخ الإنساني الحديث، ولا شك أنّ الشعر بإفرازاته الفنية المختلفة هو أبرز جنس أدبي شاهد على المراحل التاريخية التي عرفتها البلد بحكم الظروف التي نشأ فيها والمفارقات التي ترعرع في كنفها؛ إذ كان بحق وثيقة شعورية وأدبية وحضارية حفظ بها تاريخ الأمة في انتكاساتها وانتصاراتها، في كبوتها ونهضتها.

لقد أوقف الشاعر الجزائري أيام الاستدمار* قصائده على خدمة الوطن، والدفاع عن مقوماته، واستنهاض همم شعبه؛ عندما سخّر نصوصه للإصلاح، والنضال، والوحدة،

* مصطلح وظفه المفكر الجزائري نايت مولود بلقاسم، ويريد به وصف المستعمر الفرنسي وسياسته في الجزائر التي لا تشبه غيرها من الحركات الاستعمارية في العالم

والتعليم، والتوجيه، وتأصيل أركان المجتمع الجزائري، واقتحم بها معترك السياسة من أوسع أبوابها، فأثبت بحقّ أن الشعر سلاح لا يقلّ أهمية عن غيره من الأسلحة.

وقد أثبت هذا الطرح أنّ إطار الشعر هو إطار تاريخي اجتماعي، ولا يمكن له أن ينفصل عن مربّعه حتى لو ادعى، حيث عرفت المسيرة الشعرية الإنسانية بعض محاولات تمرّد الشعر على التاريخ والمجتمع...، ولكنها في الحقيقة لم تتعدّ كونها تنويعات وأصداء لفترات تاريخية واجتماعية[1]. إذ يصعب -بل يستحيل- أن نعثر على نص أدبي خارج حدود الزمن باعتباره نتاج ظروف تاريخية وثقافية معينة، مهما احترمنا الزمن الحدثي الذي يتشكل داخل النص، والذي لا يكتسب قيمته إلا من خلاله.

وقد وعى الشاعر الجزائري بهذا الدور مبكرا، حيث يقول رمضان حمود في هذا الصدد: "إن دور الشاعر الريادي لا يقف في حدود النظر إلى الواقع، والتفاعل مع الحاضر فحسب، إنما دوره أن ينظر إلى مستقبل شعبه، وأن يهيء التربة الصالحة للخلق..."[2]؛ حيث وضع على عاتق الشاعر مسؤولية بناء المستقبل وعلى هذا النهج سار الشعراء الجزائريين مؤمنين بدور الشعر، فها هو مفدي زكريا يؤكده عندما ينظم:

رسالة الشعراء في الدنيا مقدسة لولا النبوة كان الشعر قرآنا[3]

[1] ينظر: الظاهرة الشعرية العربية، حسين خمري، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001، ص 83

[2] علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2003، ص 17

[3] مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2007، ص 245

وبالإدراك نفسه ثمّن محمد العيد آل خليفة أثر الشعر على الشعب، وكيف أنهما متعلقان ببعض إذ يقول:

لقد بذر الشعر فيه الفــدى وحسبك بالشعر من باذر

وقفت على الشعب جهد به وكرست عمري إلى الآخر[1]

1-محطات الشعر الجزائري التاريخية الكبرى:

جعل الشعر الجزائري لمساره مراحل بارزة وخطى واضحة حددتها الظروف التاريخية التي تعاقبت على الوطن، فعبّر بصدق عن حياة شعب عايش ويلات الاستعمار وظلمه مستمدا روحه من هذا القبس المبيت من الأمير قائما في بداية أمره على الدعوة والعمل ثم اليقظة والانتباه وصولا في الأخير إلى الثورة والانطلاقة الجديدة، حيث تراوح بين التشاؤم والانطفاء المراد به بعث التطلع إلى أحوال النفس الإنسانية التي تؤمن دوما بقدسية الحياة الكريمة، ولعل هذا ما صبغ الشعر الجزائري أكثر من غيره بصبغة الحماسة خاصة في مراحل الحداثة الأخيرة، كما أنه لم ينفصل عن مسار التطور الذي عرفه الشعر العربي عموما ولا عن قضايا الأمة العربية المشتركة متخذا لنفسه نزعتين يتأرجح بينهما أبدا منذ نشأته إلى اليوم هما: نزعة المحافظة والتقليد، ونزعة التطور والتجديد ولكل نزعة رواد ومتحمسون وأنصار وداعون دون أن ننفي إمكانية التداخل بينهما عند الشاعر الواحد نفسه.

[1] محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار الهدى، الجزائر، دط، 2010، ص 12

و يمكننا أن نجمل محطات الشعر الجزائري الكبرى في ثلاث هي:

أ)محطة ما قبل 1920: بكل ما تحمله من تعاسة وكآبة وبكائية انتهت عند نقطة التحول الذي حدث باستفاقة الشعب وبما شهدته الجزائر من أحداث داخلية مستجيبة للتحولات العالمية الحاسمة.

ب)محطة من 1920 إلى 1962: حيث ظهرت فيه صحوة الشعر وحركيته مدفوعة بالتحول الحاصل في نفسية الشعب وإقدامه ومضيه في محاربة الاستعمار من خلال الثورات الشعبية التي شنها ضده إلى غاية ثورة التحرير الكبرى.

ج)محطة ما بعد الاستقلال: تنقسم بدورها إلى مراحل حسب الأحداث المفصلية التي مرت على الجزائر، وبين ركود ونشاط للشعر ودوره خلالها، اتسمت بارتباطها الوثيق بالأيديولوجية في بداياتها، ونزوعها نحو التجديد والتجريب وطرق جميع أبوابه في مراحلها اللاحقة. وثمة من ينعتها بمرحلة الشعر الجزائري المعاصر وحجتهم أن عددا من روادها مازال بين ظهرانينا اليوم ومازال يكتب ويقرض الشعر مهما تغيرت مضامينه بتأثير من الواقع وتفاصيل أحداثه.

أما عن اتجاهات الشعر الجزائري الحديث فقد برزت ثلاثة اتجاهات كبرى سلكها الشعراء حسب ما تمليه عليهم ظروف الوطن وشعبه، واستجابة كذلك للنزعة التي اتخذها كل شاعر مطية لقصائده حسب اعتبارات عديدة ومختلفة، هي: الاتجاه الإصلاحي، الاتجاه الثوري، والاتجاه الوجداني؛ حيث سنفصل في الحديث عنها في المحاضرات التي تأتي تباعا.

المحاضرة الثالثة: الاتجاه الإصلاحي في الشعر الجزائري (الماهية والمنحى)

1-تمهيد:

يعرف شعر الإصلاح بأنّه الشعر الذي يأخذ على عاتقه دور الإصلاح في شتى مجالاته: الاجتماعية، السياسية والدينية؛ والإصلاح هو تقويم الشيء وإزالة الفساد عنه، وقد قامت الحركة الإصلاحية في الجزائر منذ تأسيسها في بدايات القرن العشرين بالعمل على إصلاح ما أفسده الاحتلال، وما أوقعه الجهل والأمية من خلل في الدين، وفي شتى مسائل الحياة الاجتماعية، وقد تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، لتكمل مسيرة بدأها مصلحون جزائريون رواد من قبل، أمثال: الحفناوي، والمجاوي، وابن أبي شنب، لكنها واصلت مسيرتهم، ونظمت عملهم، وكتبت لهم الحياة بعدهم، لتشع بنورها على الجزائر كلّها؛ و"قد كان الشعر حتى مطلع القرن، يلتقي التقاء عفويا مع الخطوط الإصلاحية التي حددتها الجمعية فيما بعد.

2-نظرة شعراء الإصلاح إلى الشعر:

نحى الاتجاه الإصلاحي في الشعر الجزائري منحنيين بارزين تجلا من خلال طرح شعرائه نظرتين مختلفتين في الرؤية ومتفقتين في الهدف هي:

نظرة الإصلاحيين المحافظين، ونظرة الإصلاحيين المجددين

أ) نظرة الإصلاحيين المحافظين

يتفرع هذا التيار بدوره إلى فرعين:

الأول: يتزعمه الشيخ البشير الإبراهيمي وكل من يستند إلى النقد اللغوي وهؤلاء ينظرون إلى الشعر بمنظار لغوي أي مقياسهم الجيد للشعر لكي يكون شعرا هو حسن اللغة والوزن

الثاني: أنصار التراث الذين لا يخرجون عن الدائرة الأولى ومنهم بن باديس والأخضر السائحي ومثلهم في ذلك شوقي والمتنبي والبارودي. يقول الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله "الشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية، وأصل بلاغتنا ومرجع شعرائنا في اللغة والبلاغة العربية والاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان المبين فكيف نبني دعوتنا إلى توسيع الشعر العربي بالتزهيد فيه"[1] ، وكلا الفرعين مرتبطان بالدين الإسلامي وقيمه النبيلة.

التيار الثاني :

يمثله كل من رمضان حمود، الهادي السنوسي، السعيد الزاهري وهؤلاء تشبعوا بالثقافة العربية الإسلامية التي تلقوا مبادئها في قراهم ووسعوا معارفهم بعد أن التحقوا بالمعاهد العليا ثم جامع الزيتونة، وهم برصيدهم التراثي يحسنون قراءة اللغة الفرنسية التي تلقوها في صغرهم ومن خلالها تعرفوا على الثقافة الفرنسية ومبادئها التي تنادي بالحرية والأخوة والمساواة، وكان شعراء الثورة الفرنسية مضرب المثل لهم وخاصة رمضان حمود "لأنهم أذكوا نار الثورة بطريقة ذكية"[2] وأهبوا الحماس في نفوس الجماهير فأيقضوا الهمم الفاترة وألبوها على النظام الفاسد فثارت ضد الظلم والاستبداد.

إن المحافظين المنطلقين من عنصر اللغة يرون فيها هويتهم و أصالتهم وشخصيتهم ودينهم لأنها لغة القرآن ومن ثم فهي مقدسة عندهم إلى أبعد مدى. ولأن اللغة الفرنسية

[1] مجلة الشهاب ج2، عدد 6مارس1930، ص126

[2] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1985، ص72

أخذت في التسرب لدى الأوساط العامة وخاصة الفئة التي تمدرست في المدارس الفرنسية برغم قلتها مقارنة مع مجموع السكان، ولذا فالنظرة إلى اللغة الفرنسية كانت نظرة عداء وبقيت إلى يومنا، ولا يستطيع أحد أن ينكر الصراع القائم بين ما يسمى بالمفر نس والمعرب في الجزائر.

وربما كانت نظرة الإبراهيمي من هذا المنطلق أي الصراع بين اللغة العربية والفرنسية ولأجل البقاء والحفاظ على كيان الأمة وشخصيتها كان التركيز على العنصر اللغوي والإبراهيمي لا يدرس الشعر ولا ينظر إليه إلا من "زاويته اللغوية"[1] ويقيمه بناء على صوره البيانية وفصاحته ومدى تعلق هذا الشعر وصلته بالأدب القديم أي بالتراث، فكان عبد الحميد الكاتب وابن العميد والجاحظ والحريري وأبو تمام خير من يمثل التراث، ومن يقتدى بهم وأنصار التراث لا ينظرون إلى قيمة الشعر والأدب عموما إلا من خلال زاوية هؤلاء إعجابا بالأدباء المبدعين، وهؤلاء لا يخرجون في تعريفهم للشعر عمن سبقوهم من النقاد القدماء وفي طليعتهم قدامة بن جعفر. وهذا أحمد الأكحل يحاول تعريف الشعر فيقول عنه: "الكلام الموزون، المقفى، السهل العبارات، ذو الخيال البديع والاستعارات البليغة الفائقة والمعاني الرقيقة الشائعة دون الغريبة، لأن البلاغة ما فهمته الخاصة والعامة"[2]

لقد كان إعجاب هؤلاء بمدرسة الإحياء إعجابا شديدا فشوقي وحافظ إبراهيم هما النموذج الأمثل لهم جميعا "لأن شعرهم يعالج في مضامينه واقعهم ويلمس أذواقهم

[1] المرجع نفسه، ص46

[2] أحمد الأكحل، ما هو الشعر .جريدة النجاح، عدد 828، 20مارس 1929

ويثير مشاعر العروبة والإسلام فيهم"[1] وهذا الإعجاب الكبير البالغ درجة النموذج والمثال هو الذي أثار حفيظة الشاعر مفدي زكرياء فصرح قائلا :

ليس الشمال بمثل شوقي عاجزا لو أن في بعض النفوس سخاء

إن الجزائر كالكنانة حـــرة تلد الرجال وتنجب العظماء[2]

والمتتبع للحركة الإصلاحية ونشطائها من الشعراء والأدباء وخاصة المحافظين منهم نجدهم لم يولوا أهمية لماهية الشعر ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث لينظروا له لأن مهمتهم ليست التنظير بقدر ما كانت مهمة إحيائية وإصلاحية لأوضاع اجتماعية وثقافية ودينية كادت أن تزول بسبب التدهور الذي أحدثه الاستدمار الفرنسي وما أحدثه من تخريب في البنيات الأساسية التي يرتكز عليها المجتمع وفي طليعتها الدين والثقافة. لذا فهم لم "يقفوا وقفات طويلة في تحديد ماهية الشعر وتعريفه بقدر ما أولوا أهمية كبيرة لوظيفة الشعر ودوره ومكانته في الحياة والمجتمع وكذلك مهمة الشاعر ورسالته في التوجيه"[3]

ب) نظرة الإصلاحيين المجددين:

يتزعم هذا الفصيل وبلا منازع رمضان حمود بن سليمان ونظرته لا تخرج عن نطاق المحافظين الإصلاحيين إلا فيما يخص قوانين الشعر وهو القائل:"الشعر تيار كهربائي مركزه الروح وخيال لطيف تقذفه النفس لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى كالماء لا

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق ص61

[2] ينظر المرجع السابق ص59[قصيدة ألقاها في المؤتمر الخامس لطلبة الشمال الإفريقي المنعقد بتلمسان في سبتمبر 1935 ونشرت بجريدة الأمة، عدد 43(1935/9/24)]

[3] ينظر المرجع السابق ص68

يزيده الإناء الجميل عذوبة ولا ملوحة وإنما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان"[1] وقد حكم على الذين يظنون بأن الكلام الموزون والمنمق هو الشعر بأنه "ظن فاسد واعتقاد فارغ وحكم بارد"[2] وماهية الشعر عنده هي الروح والخيال وليس شيئا آخر وربما تحول النثر ليصبح شعرا و"قد يتفوق في إيصال التجربة على بعض القصائد العمودية التي ليس لها من عناصر الشعر غير الوزن والقافية"[3]

ويلتقي رمضان حمود مع نزار قباني في قضية الشكل والوزن في قصيدة النثر ويختلفان في نقطة هامة، فرمضان حمود يتكئ على الدين ويتخذ القرآن عاملا أساسيا ومساعدا في الاستدلال بإمكانية القصيدة النثرية ونجاح تجربتها لما قالت العرب عن القرآن: "إنه شعر" وهي لا تعرف بحور الشعر وأنه لا أثر فيه للوزن، وأن العرب لما كانت تنشد الشعر كانت تحاكي أوزانا "لقتها عن الطبيعة المترنمة وكانت صالحة لاحتواء ما يختلج في صدورهم النقية"[4] أما نزار قباني فقد ادعى أن صورة مريم هي قصيدة شعرية[5] لأن الله أول ما تكلم، تكلم بالشعر كما يقول.وقد يحمل كلام نزار على المجاز لا على الحقيقة من قبل بعض الأدباء والنقاد المتمرسين وفي ذات الوقت قد ينظر إليه غيرهم من زاوية عير هذه فيرمى بالجنون أو الإلحاد مرة واحدة.

أما قضية اللغة فله رأي فيها فلا يسمى الشاعر شاعرا عنده "إلا إذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسمة. ويضيف قائلا: يجب على الشعراء الكبار أن يتنازلوا إلى مخاطبة الطبقة الوسطى

[1] د.صالح خرفي، رمضان حمود. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص101

[2] المرجع نفسه، ص97

[3] محمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1985 ص97

[4] المرجع نفسه، ص20

[5] ينظر: نزار قباني، الشعر قنديل أخضر، منشورات نزار قباني، دط، دت ص63

والسفلى من الأمة أي العامة التي هي هيكل الشعوب ومرجعها الوحيد عند المدلهمَّات ويقتدوا – بقطع النظر عن اختلاف الأديان- بشعراء فرنسا وأدبائها في إبان انفجار بركان الثورة الكبرى" أي تحريض أبناء الأمة على طلب المساواة والحرية، وإثارة وجدانهم وتحريك ضمائرهم للقيام بالعمل المنتظر منهم وهو تحرير الوطن والإنسان من الاستعمار.

وهو في هذا ليس بغافل عن قضية الصدق الفني في الشعر عنده "إلهام وجداني ووحي الضمير"[2] ولكي يكون خالدا لابد "أن يصدر عن نفس حساسة في نفحاتها"[3] وأن يكون من النوع الذي يتسرب إلى"أعماق النفوس المثيرة الحية"[4] هذه بعض القضايا التي تعرض لها رمضان حمود في كتابه"بذور الحياة" والتي اعتمد عليها كل من الدكتور محمد ناصر والدكتور صالح خرفي في دراساتهما المتعلقة برمضان حمود وبالشعر الجزائري عموما.

أما وظيفة الشعر فيتفق فيها الإصلاحيون جميعا ولا خلاف بينهما، فلابد للشاعر أن يكون "روح شعبه" ومدركا لرسالته الحضارية لأنه مستخلف، والمستخلف في الأرض من حقه الرئاسة وكيف يترأس أو يتملك من لا يملك حرية نفسه ولا يتمكن من"النطق بالحقيقة العميقة الشاعر بها القلب"[5] الحقيقة التي يشعر بها الشاعر قبل غيره فالشعراء

[1] د.صالح خرفي، رمضان حمود، ص117 و118

[2] محمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، مرجع سابق، ص67

[3] المرجع نفسه، ص67

[4] المرجع نفسه، ص 17

[5] المرجع نفسه، ص 65

الفنانون هم رسل الشعوب بعد الأنبياء "فالشاعر الصادق قريب من الوحي"[1] على حد قول رمضان حمود. أوكما قال الشاعر محمد بن دويدة :

كم كهرب الشعر مغلوبا على وطن فجرد السيف يتلو آية الغلب[2]

إن رسالة الشاعر تكمن في التوجيه والتوعية والدفاع عن الشرف والتغني بالأمجاد والنظر إلى حال شعوبهم وواقعها بمنظار نقدي فعال فالهادي السنوسي عندما همم بجمع ديوان الشعر الجزائري أخرج منه مواضيع الرثاء والمديح والهجاء "لما بينهما وبين الحقيقة اليوم من التباس، لما في المديح من التنازل عن الكرامة وفي الهجاء من البذاءة، وفي الرثاء من التعداد الذي قلما يصدق فيه قائله والجميع في الأكثر لا يفيدنا معنى اجتماعيا ولا غيره وعلى الأخص في بيئتنا"[3] لأن هذا الفعل في حد ذاته توجيه للشاعر وللشعر لخدمة الوطن والاهتمام بقضاياه الملحة وتجسيدا للنحن بدلا من الأنا، وبذلك يكون "الشعر سلاحا من أسلحة الفكر الإصلاحي الأمر الذي يجعل منه أداة لنشر المعاني الإصلاحية فنشأ ما أطلق عليه "شعر الدعوة" دعوة إلى النهوض إلى العلم، إلى اليقظة وأخيرا دعوة إلى رفض الفكر الغيبي"[4] ورد الاعتبار للقيم الدينية السمحة.

بعد هذا العرض يمكن القول أن نظرة الإصلاحيين جميعا تهدف إلى ما يسمى بالفاعلية الأدبية عموما، وأن الإصلاحي يحاول أن يكون شعره فعالا يؤثر في النشاط الجمعي للمجتمع وفاعليته الإيجابية تكمن في تفجير الطاقات البشرية نحو إبداع مفيد

---

[1] المرجع نفسه، ص 65

[2] محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، المطبعة التونسية، تونس،ط2، 1345هـ 1936، ص144

[3] محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، مرجع سابق، ص 10

[4] عن الدكتور كمال عجالي، الطيب العقبي أديبا، مخطوط أطروحة دكتوراه دولة، جامعة باتنة، 1998/1997م، ص142

للمجتمع. إبداع فني أو تقني أو اقتصادي أو تحويل الفرد إلى عامل يستطيع في أي لحظة ما أن يغير ما حوله أو يؤثر فيه وقبل ذلك يغير ما بنفسه من جوانب سلبية، ليصير فردا إيجابيا في المجتمع وفعالا أيضا، حيث يسعى الشاعر الإصلاحي دائما أن يكون شعره وصفة أدبية لعلاج أمراض المجتمع وآلامه. شعر يخلق فاعلية إيجابية متوترة تدفع المجتمع إلى الحراك.

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم - كلية الآداب العربي و الفنون المجلس العلمي للكلية

المحاضرة الرابعة: الاتجاه الإصلاحي في الشعر الجزائري (نماذج و موضوعات)

1-نماذج من شعر شعراء الإصلاح وموضوعاته:

لا يمكننا الادعاء أن الشعر الجزائري الحديث هو النموذج الإصلاحي في الشعر الإسلامي الناطق بالعربية، إلا أن هذا الشعر قد غطى جميع الأغراض والتزم الخط الإصلاحي الذي تمليه العقيدة الإسلامية. وهو التقيد بالقرآن والسنة وأخلاق الرسول ومن ثم الالتزام في كل قول فأي كلام مبدع لابد أن يكون معياره الأخلاقي "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

لقد كان شعراء الإصلاح حريصين على نقاء المجتمع كحرصهم على نقاء سمعتهم وهذا النقاء في نظرهم هو قاعدة الأساس التي تقوم عليها أعمدة بناء المجتمع، والنقاء لا يتجلى في الطابع الخلقي للشاعر المصلح فقط أوفي هندامه، وإنما في نقاء العبارة وانتقاء اللفظة الدالة الموحية في غير تكلف أو غموض. لفظة تقرب الفهم لعامة الناس لأنها توجه لهم جميعا، لا للخاصة منهم إذ الغرض من الشعر الإصلاحي التوجيه والتربية والنصح والإرشاد وإثارة الحس الديني والشعور بالمسئولية الملقاة على عاتق الجميع وفي مقدمتهم المبدع لأن هذا الأخير يقوم بدور الجندي والقائد المرشد. فهو جندي في دفاعه عن مقومات الأمة وأخلاقها ودينها، وقائد لأن إبداعاته تحمل هم قضية بناء الإنسان وتكوين خليفة في الأرض.

ولذلك فالشعر الغزلي يكاد ينعدم لدى شعراء الإصلاح إلا ما ورد عن قلة قليلة وهو نوع من دغدغة الخواطر والعواطف لا أكثر وأحيانا يسمو إلى القضايا السياسية وكأني

به يتحول إلى التغزل بالأرض "القضية الأم". إذ يمكننا القول أن الشاعر الإصلاحي ينشد بوعي أي لا يسيطر عليه جنون الشعر، فهو لايجاري خياله ولا ينغمس في عواطفه، لأن غرضه التفعيل،أي تحريك المجتمع وجعله يتجاوب مع الواقع والأحداث دون إهمال متطلبات الروح، أي أن هذا النوع من الشعر لا يسيطر على القلب ولا يرديه قتيلا أو جريحا. إنما يذكيه ويسايره دون أن يؤثر في حياته سلبا بل يجعله نابضا متذكرا دائما متعلقا بواجباته الدينية والدنيوية أي لا سلطان للهوى عليه، ولذا فالشعر المتعلق بالغزل برغم وروده فهو لا يصور ولا يرتقي إلى درجة التصور المألوف التي تجعل المتلقي يمعن النظر ويتفحص الصور ويتلذذ بجمالها ويستمتع بتراكيبها ومفرداتها فإذا فتشت فيه عن صورة من الصور التي تناولها غير الإصلاحيين فلا يمكنك العثور عليها، يقول محمد السعيد الزاهري معلقا على الحذف الوارد في قصيدته"الشعر الفحل": "هاهنا أحد عشر بيتا ما رأينا فيها فائدة اجتماعية تنشر بين المتأدبين بل هي أبيات شخصية لا غير"[1].

قد يقول قائل بأن هذا نوع من الزهد أو التسامي، وإنا نقول إنه نوع من التربية المكتسبة من الدين والبيئة التي تمجد الدين كي لا نقول المحافظة لأن لفظة المحافظة قد تجرنا إلى نوع من التطرف، وهذا ما نستشفه من هذه الأبيات لابن رحمون:

وأنا كمثلك أحسن التشبيب لَـ كني نبذت سفاسف الخلعاء

فتركت ذلك لمعشر قد أولعوا وتشبثوا بمطارف الأهــواء

زعموا السعادة في فتاة موهت ومطارف قشب وفي الصهباء[2]

ويقول أيضا في قصيدة " **حنين العفة**"

[1] ينظر: هامش قصيدة "الشعر الفحل" في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، مرجع سابق

[2] ابن رحمون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980، ص137

أهوى الجمال وتُصْبيني مناظـــره مالم تدنسـه كف الآثم الجـاني
إني امرؤ صاغني الرحمان من صغري أقدس الحسن في سري وإعلاني
لولا الجمال الذي بالوجـد كهربني ماكنت أفنيت في التغريد ريعاني
لكن لي همـة لم ترض لي بهوى يجر لي ندما أو وخز وجـدان
والناس إن كان لفظ الحب يشملهم فهم بحكم الهوى العذري ضربان
هذا هواه مبل الجسم تدفـعه وذا شريف القصـد روحـاني[1]

أ)محاربة الطرقية:

لما حل الاستعمار ببلاد الجزائر قام بدراسة للمجتمع من جميع زواياه وتعرف على الذهنيات السائدة وأدرك أنها تنجذب إلى الغيبيات وتنقاد إلى المشائخ، وتعلن خضوعها وولاءها له، فشجع هذا الطرف بعد أن طعمه بما يخدم مصلحته فتعلق أفراد الشعب بالأشياخ وقدسوا الأولياء لجهلهم وسذاجتهم "ووقفوا المدح على قداساتهم وكراماتهم بعد أن كان في مدح الرسول. وكان الانحطاط الفكري قد عراهم من كل أصالة في التفقه(...) وأصبحت العلاقة بين الشيخ والأتباع شبه تعبدية لا مجال فيها لأعمال العقل"[2] واستغل المستعمر هذه الفرصة ودخل الحصن بمساعدة من هم بداخله وتمكن من الإسلام باسم رعايته ورعاية الأولياء والمناسبات الدينية وسار السذج والجهلة بأمر دينهم في هذا الطريق ظنا منهم بأنهم يخدمون دينهم وإذا بهم ينحرفون عن جادة منهجه فقيض الله من ينصر دينه بالكلمة الطيبة الفصيحة، خطابة ونثرا وشعرا وتوجيها، بل ومقاومة في كثير من الأحيان على كافة الأصعدة وسنذكر أمثلة لذلك. ووصل الحد

[1] المصدر نفسه، ص 156

[2] د.صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، دط، دت، ص117

بالطرقيين المزيفين إلى استعمال العنف السياسي لإيقاف الصحف كالبرق[1] والجسدي كالتعدي على الإمام بن باديس قصد التخلص منه نهائيا وقتله حتى يصفو لهم الجو الوثني.

لقد ظن عامة الناس والسذج خصوصا أن الشيخ هو بمثابة الرب "يعطي ويمنح يقبض ويبسط هو منبع كل خير ومصدر كل شر، وتفشت إثر ذلك بدع وأباطيل شوهت وجه الإسلام وسودت وجه البشرية"[2] وقد اعترف العديد من الأدباء الذين أنقذهم المعهد الباديسي بعد الدراسة فيه بأنهم كانوا ضحية هؤلاء المدمرين لدينهم المفسدين لعقيدتهم الناشرين لوثنية ما أنزل الله بها من سلطان. يقول الجنيدي أحمد مكي: "كم قضيت من الليالي الطوال في سرد أخبار وكرامات من نعتقد فيهم الصلاح(...)أما عن زياراتي للأضرحة وتقبيلها والتوسل بأحجارها وما على توابيتها من الرياش وترابها لا تسأل"[3] وقال محمد الهادي السنوسي عن نفسه "كنت قبل صحبتي لهذا الأستاذ الإمام-(يقصد بن باديس)- ولوعا بأباطيل الخرافيين من الطرقيين راسخ اليقين في الإيمان بطواغيت الدجالين، ولقد أصبحت والحمد لله حر الضمير والعقيدة والفكر راسخ اليقين في أن الإسلام هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لا التصوف وما يدعيه الصوفيون"[4] .

ولما عاد الشيخ الطيب العقبي من أرض الحجاز، وقف للطرقية والطرقيين بالمرصاد وسد عليها كل المنافذ وحاربها بكل ما أوتي من بيان وفصاحة، شعرا ونثرا، واستطاع أن

---

[1] ينظر الدكتور محمد ناصر، الصحف العربية الجزائريةمن1847 إلى 1939 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ص85

[2] ينظر د.صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص118

[3] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، مرجع سابق، ص99

[4] المرجع نفسه، ص186

يبرز كالشعلة في الليلة الظلماء فاهتدى به أولوا الألباب، لما يملك من قوة الإقناع ومن حجج دامغة وبرهان مستمد من الذكر الحكيم والسنة النبوية الشريفة، وبذلك استطاع وإخوانه في الحركة الإصلاحية من إنقاذ المجتمع وإعادة الفاعلية له، ولأذكوا في الشباب روح الوطنية المبنية على الإسلام والعربية.

واللافت للانتباه أن الطيب العقبي كان عنيفا في بداية مشواره حين أعلن الحرب على الطرقيين ولم يهادنهم أبدا وأشعاره تعكس ذلك بقوة. وهاهو يفتخر بِـ محمد السعيد أحد الفرسان الذين أعلنوا الحرب على الطرقيين فيقول:

يسائلني أهل الغواية من فتى أغار عليهم عامدا في مقالته

ومزقهم في الناس شر ممزق وصيرهـــم أضحوكة بكتابته

فقلت لهم يا قوم لو تعرفونه عرفتم فتى يشتد عند إرادته[1]

إن هذا المدح وهذا الوصف الكامل للزاهري هو دعامة وسند له في محاربته للدجل والزور والبهتان وكل الآفات المتعلقة بالخرافة والأباطيل التي أنيطت بالدين أو حيكت له عن جهل أو بدعم من السلطات الإستدمارية ولم يتوان الطيب العقبي أو يتقاعس لحظة واحدة في كشف هؤلاء الدجالين ووصفهم بالكفر والمارقين والشياطين وبأنهم رؤوس الضلال وأن سلوكاتهم باطلة ومزيفة

أئمة كفـــر مذ قديم بأرضنا ومثلهم من بالهداية يكفـــر

شياطين إنس خادعون بإفكهم رؤوس ضلال للزهادة أظهروا

يقولون هم أهل السلوك بطرْقهم وما هم عليه باطل ومتبـــر

[1] مجلة البرق عدد5، 4 أفريل1927

وكم فعلوا الفحشاء سرا وجهرة وعنهم قبيح القول يروى ويؤثر
فراعنة ما بيننا قد تألهـــوا وقد هودوا الأتباع ونصّروا
وكم فرقوا السلام بين اجتماعه ولكنهم في غيهم قد تجمهروا
وكم تركوا الطاعات وارتكبوا الخنا قالوا لمن ينهاهم الله يغفـــر[1]

يكشف الشاعر في هذا النص درجة الانحطاط الخلقي والانحراف الفكري ونشر العقائد المخالفة للدين بل وتزييفه من قبل الطرقيين. وأصبح الناس "يعتقدون في شيوخ المرابطين على أنهم واسطة تقربهم إلى الله، وصاروا لا يصلون ولا يخشعون إلا بين أيدي من يتبركون بهم. ويشحون في إخراج الزكاة ويتسابقون إلى الوفاء بما ينذرون للمزارات والمقامات ويصومون رمضان لا على أساس الحجة الشرعية في ثبوته وانقضائه ولكن على أساس رؤسائهم الروحيين من المرابطين والطرقيين"[2] ومكث العقبي سنوات عديدة يجادلهم ويذكرهم بالآيات القرآنية وبمختلف الحجج الدامغة المستندة على القرآن والسنة وإن عجزوا في الرد فإن الشيخ قد أفلح في إيقاظ الوعي لدى الشباب وخاصة المتعلم واستطاع أن يؤثر في الكثير من الأباطيل وأن يكون له أنصار بفضل استقامته وتدينه ووضوح أسلوبه وهو القائل:

وجادلتهم بالواضحات مبينا طريق الهدى وما به الدين يأمر
وقد عجزوا إذ لا دليل لديهم وليس لهم في موقف الصدق مخبر
فقلت هلموا واسمعوا لمقالتي ومن سنـــة المختـــار لا تتنكروا
خذوا من كتاب الله أبلغ حجة وقول رسول الله دين محـــرر

[1] مجلة البرق ع12، 1927/5/23

[2] بوالصفصاف عبد الكريم.. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1980

حيث لم يعد الشعر هنا ذلك المعبر عن مكنونات الذات أو عن تفريغ شحناتها المكتنزة أو المكبوتة. وإنما أصبحت له وظيفة ليست إبلاغية أو بلاغية فقط، إنما هي توجيهية إرشادية بل تأطيرية وتربوية ولذلك فهو سلاح من أسلحة الفكر الإصلاحي؛ الأمر الذي جعل منه أداة لنشر المعاني الإصلاحية فنشأ ما أطلقنا عليه شعر "الدعوة" دعوة إلى النهوض إلى العلم إلى اليقظة وأخيرا دعوة إلى نبذ الفكر الغيبي الذي لا سند له من الكتاب والسنة.

ب) الرثاء:

إذا كان هذا الموضوع قد استبعده الهادي السنوسي من كتابه " شعراء الجزائر في العصر الحاضر"مبررا موقفه بتعداد المناقب الذي قلما يصدق فيها قائلها، فإن شعراء الإصلاح لم يبعدوه وإنما عرفوا من يرثون، ليس الأقارب وذوي الرحم، إنما رثوا إخوة الروح من العلماء والمصلحين مثل: محمد بن أبي شنب، حافظ إبراهيم، أحمد شوقي، الأمير خالد، الإمام محمد عبده، شكيب أرسلان، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الحميد بن باديس لأن هؤلاء وأمثالهم يمثلون الأسس والأعمدة التي ترفع الحضارات، يرثون فيها القيم والمبادئ التي يحملونها وعاشوا من أجلها.

وهذا ابن رحمون يرثي ثلاثة من شهداء المغرب الإسلامي الذين لقوا حتفهم بعد سقوط الطائرة التي تقلهم سنة1949 وهم الدكتور: لحبيب ثامر، ومحمد بن عبود، وعلي الحمامي، يقول:

شهداء الحق متم ميتـــة يتمناها الملوك العظماء

أودع الرحمان فيها آية من معاني المجد تغدو الهمما

وعلى الدنيا تراءت فلكـا من مساعيكم يباهي الأنجما[1]

أما عبد الحميد بن باديس فقد رثاه أكثر من شاعر لما له من مكانة علمية وأدبية ودينية في الأوساط العامة والخاصة، وفقدانه يعد خسارة للعالم الإسلامي أجمع. ويقول زهير الزاهري في قصيدته: "إلى روح بن باديس"

سائل التاريخ عن عبد الحميد بن باديس أو الشيخ الفقيد
يجب التاريخ أنا أمـــة تنشئ الأبطال من عهد بعيد
إن أعلام العلا من نسجنا وعلى هامتنا خفق البنـــود
وهلال النور منا يرتـــوي بدماء من جريح أو شهيد
هو زمن للبطـولات التي خلدت بالوحي في الذكر المجيد[2]

[1] ابن رحمون، الديوان، مصدر سابق، ص66

[2] لم نجد للقصيدة مصدرا، أخذت عن صديق حافظ بشغل أستاذا بالثانوي في بشار، أدرجناها لبلاغتها وسمو معناها ورقي هدفها، ومناسبتها للمقام.

المحاضرة الخامسة: الاتجاه الثوري في الشعر الجزائري

1-تمهيد:

لا يمكن اعتبار الشعر الثوري مرحلة مستقلة عن باقي المراحل الشعرية السابقة التي مر بها الشعر الجزائري، لكونه حلقة في سلسلته، إذ كتب فيه رواد الشعر الإصلاحي، كما رواد الشعر التقليدي، والوجداني أيضا، حيث لم يكن حكرا على طائفة معينة من الشعراء، كما أنّ أسلوبه لم يختلف عن القصيدة التقليدية إلا في القاموس اللغوي، والموضوعات، أما البناء العام من إيقاع، واحترام لعمود الشعر فقد ظل قائما فيه، لذا لا يمكن ملاحظة تطور أسلوبي واضح المعالم في الشعر الجزائري من خلاله إلا على مستوى المعجم الشعري الذي ظهرت عليه بعض الحقول الجديدة.

2-نشأة الاتجاه الثوري في الشعر الجزائري وأهم أعلامه:

يقصد بالشعر الثوري ذلك الشعر الذي يمجد الثورة ويحيي مآثرها، ويصف بطولات رجالاتها، قصد الرفع من معنوياتهم والشعب، وتقزيم الغاصب للأرض، ومجابهة ظلمه بالكلمة، وقد حلّت القصائد الثورية محلّ الشعر السياسي والإصلاحي والوطني في معناه القديم.

وتعد الثورة التحريرية الكبرى منبت الشعر الثوري في الجزائر ومعينه الأول؛ حين احتضنتها قصائد الشعراء التي فاضت فخرا ووطنية واعتزازا بمنجزاتها لأنهم اكتشفوا من خلالها وطنيتهم التي غيبها الاستعمار لزمن غير يسير، فأكرموا المجاهدين والشهداء؛

هؤلاء الشباب الذين أحيوا فيهم بذرة الحياة الكريمة من جديد، ونفخوا في أرواحهم روح الشرف والحرية التي لا تعطى وإنما تسترد بالدم الطاهر.

فها هو مفدي زكريا يصف أحمد زبانة شهيد المقصلة فيقول:

قام يختال كالمسيح وئيـــدا يتهادى نشوان يتلو النشيـدا

باسم الثغر كالملائك أو كالط فل يستقبل الصباح جديدا

شامخـا أنفه جـــلالا وتيهـا رافعا رأسه يناجي الخلودا

رافلا في خـــلاخل زغردت تملأن لحنها الفضاء البعيدا

حـالما كالكلـيم كلّمه المجد فشدّ الحبـال يبغي الصعودا

وتسامى كالروح في ليلة القدر سلاما يشّع في الكون عيدا

وامتطى مذبح البطولة معراجا ووافى السماء يرجو المزيدا

وتعالى مثل المؤذن يتلـــو كلمات الهدى ويدعو الرقودا

صرخـــة ترجف العالم منها ونداء مضـــى يهزّ الوجودا

اشنقوني فلست أخشى حبالا واصلبوني فلست أخشى حديدا[1]

[1] مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس (قصيدة الذبيح الصاعد)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص9

حيث يظهر جليا توظيف الشاعر لمعجم لغوي يحيل مباشرة على الثورة ومقوماتها: (الشهيد، المسيح، النشيد)، كما خصّب الشاعر معجمه بألفاظ توحي ببراءة الأطفال ونقاء أرواحهم، التي تضاهي أرواح الملائكة لما تتميز به من طهر وعلو درجات يبتغي تأثيرا قويا على متلقي نصوصه.

وها هو يثور هنا صراحة في قوله:

نحن ثرنا فلات حين رجوع أو ننال استقلالنا المنشودا

يا فرنسا أمطري حديدا ونارا واملئي الأرض والسماء جنودا

واضرميها عرض البلاد شعاليل فتغدو لها الضعاف وقودا[1]

فقد كان الشعر الجزائري في هذه الفترة ينشد نضالا ومقاومة دون مساومة أخرى، شعرا سياسيا ثوريا لا غير.

كما تجدر الإشارة ها هنا أنه "ربط بإحكام بين المسألة الاجتماعية، والمسألة السياسية في الجزائر، واعتبرهما طريقين من صيغة لابد من تلاحمهما لتقوم بمهمة المقاومة" [2]، وهذا ما نجده عند شعراء الجزائر بوجه عام.

3-صمت الشعر في حضرة الرصاصة:

[1] مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس، مصدر سابق، ص 10

[2] عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، دط، دت، ص 120

صحيح أن الشعر الجزائري احتضن قضايا الثورة قبل اندلاعها حتى، وما قصيدة رمضان حمود "علام نلوم الدهر" إلا مثالا على ذلك، حيث دعا شعراء الجزائر إلى الثورة ضد المحتل، أبرزهم محمد العيد آل خليفة، أحمد سحنون، الهادي السنوسي، الأخضر السائحي وغيرهم؛ حين مهدوا للثورة بقصائدهم الثورية المدوية، غير أن أصواتهم خفتت بعد اندلاعها لأسباب متعددة منها ما صرح به صالح خرفي أن للاستعمار دور بارز في إخماد شعر الثورة إذ يقول: "وشعراء آخرون خنقت أصواتهم الداوية رصاصات الجلاد بمفاصله، "الأمين العمودي"، "عبد الكريم العقون"، "الربيع بوشامة"، فاكتسى ركب الصمت بهم روعة وجلالا"، وكأنهم أبوا إلا أن يقدموا الدليل القاطع على أن الشعر قد بلغ ذروة الصدع الثوري، حيث تختفي الأصداء في الأبعاد اللانهائية"[1].

ومن الدارسين من رأى أن الصمت الذي اعترى عددا من الشعراء في هذه المرحلة كان رغبة منهم في إخلاء الميدان للغة الرصاص، وها هو مفدي زكريا ينظم قصيدة "وتعطلت لغة الكلام" من سجن بربروس، مؤكدا على عبثية الكلام في حضرة الرصاص فيقول:

نطق الرصاص، فما يباح كلام وجرى القِصاص فما يُتاح مُلام[2]

وكذا عندما أطلّ على الثورة المجيدة إطلالة أبي تمام على فتح عمورية لينظم:

السيف أصدق لهجة من أحرف كُتبت، فكان بيانها الإبهام

[1] صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 224- 225

[2] المرجع نفسه، ص 225

والنار أصدق حجة، فاكتب بها ما شئت، تُصعق عندها الأحلام

إن الصحائف للصفائح أمرها والحبر حرب، والكلام كلام[1]

وعلى الرغم من هذا الصمت، فقد صرخ من أعماق شعراء الجزائر صوت الثورة، ورافقها عدد منهم والذين مازالت قصائدهم شاهدة على بطولات الثوار في ساحات الشرف فـ"النص الذي يواكب الحدث، ويسجل الواقعة، لم ينتظر منه إلا أن يكون صدى، وعلى الرغم من المواكبة الملحة التي فرضتها الثورة، فإن الشعر في الجزائر برهن على أعمق من رجع الصدى، وظل متعلقا برسالته السابقة في الاستشراف"[2]؛ حيث يعد ديوان اللهب المقدس لمفدي زكريا مثال بارز على الشعر الذي واكب الثورة وكان لسانها الصادق، ومصوّرها البارع بكل ما حواه واقعها من ألم ومعاناة وصمود وقوة، موظفا أقوى الألفاظ على الإطلاق، وأكثرها تعبيرا، وأصدقها بيانا.

4-الشعر الحر والثورة:

لم تقتصر قصائد الشعر الثوري على العمودي منه، بل كان للشعر الحر نصيب من تخليد الثورة وأمجادها ممتطيا نفس القوة اللفظية حيث نجد لها حضورا قويا بارزا لكون النص الحر كذلك ولد من رحم الثورة وعالج قضيتها، ومن ذلك ما جاء عند "محمد الصالح باوية" في قصيدته: "الإنسان الكبير" التي كتبها سنة 1958 يقول:

يا زغاريد اعصفي

يا هتافات اقصفي

[1] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[2] صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 226-227

مزّقي طيف الحدود اللاهثات

طوقي بالأفق

طيري

حطّمي حلو الطغاة، مُرهق[1]

حيث أنّ الظروف هي التي جعلت هذا القالب الشعري يفجر إلى الوجود، ودفعته إلى التمرد على الشكل القديم ورفع لواء الشعر الحر، تختلف عن تلك الظروف التي مرّ بها الشاعر العربي في أواخر الأربعينيات، "فبينما كان الشاعر العربي يعيش أزمة نفسية حادة على إثر الحرب العالمية الثانية، ومأساة تقسيم فلسطين، وعدم التوازن والانسجام مع قيم مجتمعاتهم"[2]، نجد الشاعر الجزائري بعد عام 1945، ثائرا على الاستعمار الذي حاول تجريده من هويته مدفوعا إلى الثورة على واقع الثقافة والشعر أيضا.

فقد عزفت الثورة على أوتار الشعراء وقرائحهم، فكانت دافعا قويا في كتابة الشعر الحر، وهذا ما يؤكده مصطفى محمد الغماري: "... وهنا أذكر السبب الذي دفعني إلى كتابة الشعر الحر، هو أنّ الثورة اندلعت، والرقابة على الصحف ازدادت ضراوة، فارتأيت أن أتنفس الصعداء وأخرج ما في باطني من تأثير عميق من الأحداث والأزمات التي تجري أمام أعيننا..."[3] ؛ فكثر الشعراء الداعين إلى تأييد ثورة نوفمبر التي عدّوها "ثورة

[1] محمد الصالح باوية، أغنيات نضالية، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012، ص 36

[2] شلتاع عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985، ص 72

[3] المرجع نفسه، ص 76-77

للشعب كلّه وكان اختيار الشعراء لطريق المقاومة المسلحة واضحا في أشعارهم"[1]؛ إذ لم يكن تعبير الشاعر عن الثورة تعبيرا عاطفيا فحسب، بل من أهدافها ومراميها في استرجاع السيادة والحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية وإنّ ذلك كله لا يتحقق إلا بالكفاح المستمر.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعر الثوري الجزائري وإن استأثر بقضيته الخاصة إلا أنّ انتماءه العربي الإسلامي بقيا راسخا عنده، فقد تفاعل الشاعر الجزائري مع ما حدث في العالم العربي، والمتتبع لمسار هذا التفاعل يجد أن محنة فلسطين من أبرز القضايا التي تأثر بها شعراؤنا وانفعل معها بصدق وإخلاص شفيفين "ويستوي في ذلك شعراء الرعيل الأول الذين عبروا في قصائدهم منذ وقت مبكر عن العروبة والوحدة وعن ارتباط الجزائر بالمشرق مع شعراء الجيل الجديد الذين عبروا عن نفس القضايا وساروا في نفس الخط، وإن اختلفت أراؤهم عن سابقيهم"[2]

وإذ لا يمكننا – عندما نؤرخ لمرحلة أو لملمح فني ما – أن نحيط بجميع الظواهر، أو نستوفي جميع الأسماء إلا أنه لا يصعب علينا الترجيح قصد الدراسة، والخروج بخلاصات تخدم المبتغى من البحث.

أما إذا ما رمنا تحديد الخصائص الفنية للشعر الثوري، فإنه يمكننا تلخيصها في النقاط التالية:

[1] نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص 287-288

[2] عبد الله الركيبي، قضايا عربية من الشعر الجزائري المعاصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، دط، دت، ص35

- الطابع الحماسي للقصائد
- النبرة الخطابية المباشرة
- النزعة الواقعية لشعراء الثورة
- تجسيد العنف، وتصوير البطولات بدقة وتفصيل
- توظيف العبارات والألفاظ القوية

المحاضرة السادسة: الاتجاه الوجداني في الشعر الجزائري

1-تمهيد:

تأثر الشاعر الجزائري كغيره من الشعراء العرب بالاتجاه الرومنسي الغربي، لاسيما الشعراء الذين استقوا من الآداب الأجنبية بصفة عامة، ومن الأدب الفرنسي الرومنسي بصفة خاصة، كما أن هناك من أظهر اطلاعا بالرومنسية الانجليزية، هذا التيار الذي ظل ضعيفا جدا أمام طغيان التيار الفرنسي الرومنسي.

كان هذا سببا من الأسباب في نشأة الشعر الوجداني في الجزائر بالإضافة إلى عوامل أخرى منها الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فالاستبداد السياسي الذي مارسه الاستعمار، والإقطاع، والملكية الذي صاحبه استبدادا اقتصاديا خانقا، أوجد هوة سحيقة بين الجماهير المحرومة المطحونة، وبين الطبقات الحاكمة مما أجدى بالجزائري إلى طلب الحرية والمساواة في الأدب، فانصب على متابعة الحركة الأدبية التجديدية في قراءته للكتب والمجلات المشرقية على صعوبة ولوجها لأرض الوطن جراء الحصار الاستعماري على الحركة الثقافية، ومن المعروف أن معالم الاتجاه الرومنسي في الشعر العربي الحديث تكاد تنحصر في مطران خليل مطران، أدباء مدرسة الديوان، وشعراء المهجر الأمريكي، وجماعة أبولو[1]. كما نشير إلى المؤثرات البيئية والنفسية، فأغلب الشعراء الوجدانيين في الجزائر من أبناء الصحراء: محمد الأخضر السائحي، أبو القاسم سعد الله، أبو القاسم خمار، محمد ناصر... هذا الأخير الذي أبرز الأثر المباشر الذي

[1] ينظر: فؤاد القرقوري، أهم مظاهر الرومنطقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، الدار العربية، تونس 1988، ص96

تركته بيئته في نفسه، فيقول: "إن لطبيعة الصحراء أثرا كبيرا لأن أكون شاعرا، فللصحراء قدرة كبيرة على الإيحاء و هي ذاتها لوحة وقصيدة شعرية ممدودة كقطب جذب حيثما اتجهت تجد أمامك عالما يدفعك لكي تتأمل، ويذكي فيك حماسا لتصوغ مشاعرك أشعارا"[1]

غير أنّ هذه العوامل كلها لم تكن لتفجر ينابيع الشعر منفردة لو لم تصادف نفوسا حساسة مرهفة تنفعل وتتفاعل لأقل المؤثرات الخارجية متى وقعت على النفس الشاعرة. بل إن الشعراء أنفسهم يتفاضلون بينهم في درجات الانفعال ويختلفون، فمنهم المتفائل، ومنهم المتشائم، والصبور المحتمِل، والقلق المتوثب، وهنا تتبدى شخصية الفرد، وظروف تنشئته وعيشه، وثقافته، وبيئته العامة والخاصة، وأحواله النفسية وغيرها من العوامل الخاصة التي تجذب اتجاها أدبيا معينا وتذكيه في النفس ثم في الإبداع.

2-ملامح الشعر الوجداني الجزائري وموضوعاته:

قبل أن نبحث في ملامح الشعر الجزائري عن بعض خصائص المذهب الرومانسي يجب أن نعلم أن "كل شاعر حمل هذه الصفة عن جدارة واستحقاق هو مبدع في الشعر الوجداني".[2] ومع ذلك فإن كثيرا من الدارسين الجزائريين يتحرجون من استعمال كلمة:"الشعر الرومانسي"، وإنما يجنحون إلى استعمال لفظ الوجداني. دلالة على الشعر الذي يحمل بعض ملامح الرومانسية. يقول الدكتور محمد ناصر:"نود أن نشير إلى أنه

[1] عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دط، دت، ص 32

[2] - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث(تاريخا وأنواعا، قضايا وأعلاما)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2009 ، ص85

ينبغي أن لا نتصور أنه قد وجدت في الشعر الجزائري مدرسة، أو مذهب رومانسي بالمفهوم الدقيق للكلمة، فإن الرومانسية كما عرفتها أوروبا، كانت فلسفة متكاملة في الحياة والمجتمع، والدين، وغيرها، بينما ظلت في الجزائر وفي سائر الوطن العربي، مجرد اتجاه لاختلاف العوامل والظروف". [1]

إن الأسباب التي أدت إلى ظهور الرومانسية في أوروبا والمتمثل في تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية والتطلع للحرية، هي نفسها في الجزائر أيضا، وذلك جراء الظروف التي فرضها المستعمر من تدن في المستوى الاجتماعي، وكبت للحريات وقهر للشعب الجزائري وقمع له.

والشعر لن يكون رومانسيا إلا إذا تهيأت له بعض الصفات والموضوعات التي تجعل منه شعرا ينتمي لهذا المذهب. ومن هذه الموضوعات:

أ- الاهتمام بالطبيعة والتعلق بها.

ب- العناية بالفرد والمجتمع وبمختلف القضايا المتعلقة بهما.

ج- ظاهرة الحب وطغيانها في العديد من الأعمال الشعرية والعناية بالمرأة وسيرد فيما بعد تفصيل لهذه الخصائص وبيان مدى ظهورها وانتشارها في الشعر الجزائري.

أ) الطبيعــة:

يهوى الرومانسي العزلة والانفراد كي يجنح بخياله الواسع، دونما عائق ولا عقبة، يعمد إلى الخروج للطبيعة. حتى يفتن بها، وتعزف مظاهرها ملامح القصيدة " فالرومانسيون

[1] – محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص85.

ضاقوا ذرعا بما تضطرب به المجتمعات من حولهم، فولعوا بترك المدن إلى الطبيعة وكانت تروقهم الوحدة بين أحضانها ليخلوا إلى الذات أنفسهم.[1]

شغلت الطبيعة -منذ كان الشعر- جميع الشعراء، أو قل كيف يكون الشعر من دون الطبيعة؟ ألم تستهو الطبيعة الشاعر الكبير ذو الرمة؟ ألم يوظفها أبو القاسم الشابي توظيفا ثوريا جماليا ليوقظ بها المشاعر والنفوس؟ ألم يودعها العمودي الحسن ويمزجها بكاسات شعره؟ وكذلك كان شأن إخوانه الشعراء في الجزائر، فصوروا بها لوحات بقيت حية نابضة محتفظة بألوانها وفيض ينابيعها.[2]

وإفادة لذلك فإن شعر الطبيعة ليس موضوعا جديدا في الشعر العربي، لكنه قديم قدم الشعر ذاته، فمنذ بدأ الشعراء يقرضون الشعر وهم يرون أمامهم عناصر الطبيعة ماثلة شاخصة، تخبر عن نفسها فنقلوا ذلك في قصائدهم.[3]

ولعل طبيعة أرض الجزائر لا تقل سحرا وجمالا عن غيرها حتى لا تغري الشعراء، فيتغنون بها ويخلدون مظاهرها بقصائد تبقى كالقلائد على الصدور.

ومن الشعراء الرومانسيين الجزائريين الذي تغنوا بالطبيعة الشاعر عبد الله شريط الذي يصف الصيف في قصيدة مطولة. هذا مقطع منها:

هــو ذا الصيف يا فـــؤادي ينســـاب بجنبي مفعمـا باللهيـب

قد تولى عهد الربيع الذي شاخ سراعـا، ومال نحو الغــروب

---

[1] – محمد غنمي هلال، الرومانتيكة، دار العودة، بيروت-لبنان، ط1، 1973، ص169.

[2] أحمد عوين الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء لدينا الطباعة، والنشر، والإسكندرية. مصر ط1 2001، ص 5

[3] المرجع نفسه، ص7 .

أيها اللهب سوف تمتص صافي القلب من مسحة الشباب الرطيب

أيها ذا الصيف المسربل غمـا أرق أنت في جفــون الليـالي[1]

إن القارئ لهذه القصيدة يحس بمدى الكآبة التي يعيشها الشاعر من خلال تصويره لشعوره وهو يعيش فصل الصيف الذي لا يزداد إلا حرارة " إن كل صورة من هذه المقطوعة تحس بها وكأنها قطعة من وجود الشاعر نفسه"،[2] فالظروف الطبيعية التي وصفها والتي تكاد تخنقه بجوها الحار زاد الشاعر كآبة على كآبة وحزنا على حزن، وهذا جانب من جوانب الكآبة التي تضيفه الطبيعة للشاعر على مشاعر الإنسان كما تضفي له الشعور بالسعادة، فيوافق فصول أخرى مضارعة أو مضادة لها.

قد يخاطب الشاعر الطبيعة كأنما هي الإنسان فيبث فيها شكواه لعل صداها يعود إليه بالأمل كما فعل الشاعر عبد الكريم العقون وهو يخاطب البحر:

هاأنا اليوم قد وقفت أناجيـك أيا بحر فاستمع لنشيدي

فكلانـا في موقـف نتناغـى بأغان سحرية الترديد

إنك اليوم مؤنسي وسميـري ونجيّي في قفر هذا الوجود

سكنت نفسي الحزينة وارتاحت إلى حسنك البديع الفريد[3]

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص511

[2] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص511

[3] محمد ناصر الشعر، الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص518

فالشاعر يقف أمام وجه من وجوه الطبيعة أو بالأحرى أمام عنصر من عناصرها، ألا وهو البحر، فيناجيه علّه يجد مهربا من حزنه الدائم فيغريه البحر بعظمته التي تتكسر أمامها كل الأحزان.

أما مفدي زكرياء فهو أكثر شعراء الجزائر هياما بطبيعتها الخلابة ومن بين قصائده هذه. نستشف هذا المقطع الذي يصف فيه طبيعة الجزائر:

أ في رؤيـ[illegible]ه فكرك حائر وتاهـ[illegible]ن وجهه في الجزائر

سل البحر الزورق المستهام كأن مجـ[illegible]يفه قلب شاعـــر

سل الورد يحمل أنفاسـ[illegible] (الحيدر)* مثل الخطوط البواكر[1]

و في كل قصائده يجعل مفدي زكرياء من طبيعة الجزائر رمزا ودليلا لعظمة الله فهي سره في الأرض وهي أجمل البقاع على الإطلاق فالطبيعة الجزائرية أخذت بتلابيب عقله فهو رومانسي باستعماله للطبيعة حتى النخاع، وقد هام شعراء كثر بالطبيعة والوطن وتغنوا بها كما فعل الطاهر بوشوشي وغيره من الشعراء الرومانسيين الذين مثلنا لهم بما سبق من الشعر.

فالطبيعة إذا هي أكثر ملامح الرومانسي جذبا للشعراء فكل شاعر يصور ما جمُل في عينيه من مناظر ومظاهر.

ب) الفرد المجتمع:

* الحيدر: يقصد حي حيدرا بالجزائر العاصمة

[1] عن محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص518

إن طبيعة الشاعر الرومانسي وتوقه الدائم للحرية أثر كبير في صبغة شعرهم بالدعوة إلى التحرر من قيود المجتمع وسلطته " وهي وثيقة الصلة بالشخصية الرومانسية فقد خلقت هذه الشخصية لها أملا جعلتها تضيق ذرعا بالمجتمع الذي يعيش فيه وبما يسوده من قيود "[1]

ولما كان المجتمع الجزائري يعيش تحت نير الاستعمار والذي خلف له الفقر والدمار، فإن البداية الحقيقية لهذا الاتجاه (الرومانسي) إنما بدأت في الأشعار التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى مع بداية الوعي بالواقع الاجتماعي والسياسي.[2] ومثله مثل كل الشعوب المستعمرة فإن الشعب الجزائري وخاصة الشعراء منهم قد غطت وجوههم هالة من الحزن والأسى طبعت شعرهم بها فامتلأ شعرهم بالرومانسية التي تتوق إلى الثورة عن هذا المستعمر الذي قيد الحريات، وكمم الأفواه وهو الأمر الذي هيج مشاعر الإحساس بالنفور من هذا المستعمر الذي لم يورثهم إلا خيبة الأمل والحسرة.

يقول الشاعر رمضان حمود في قصيده "**يا قلبي**"

أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان

ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمان

أنت يا قلبي تشكو هموما كبارا، وغير كبار.

أنت ياقلبي مكلوم، ودمك الطاهريعبث به الدهر الجبار

ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة

[1] محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، مرجع سابق، ص123

[2] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص88

وقل اللهم إن الحياة مره

أعني اللهم على اجتراعها

وأمددني بالقوة فإنني غير قادر على احتمالها

اللهم إنها مره ثقيلة فليس لي فيها طريقا

ويلاه من هم يذيب جوانحي

فكأنما في القلب جذوة نار

نفسي معذبة بهمة شاعر

دمعي على رغم التجلد جار

حظي على متن النوائب راكب

تمشي به لمحطة الأكدار.[1]

نلمح هذه القصيدة بكاء الشاعر وحسرته على مرارة الحياة التي يعيشها وعلى الظلم الذي يعيشه ويعانيه والذي أبدل حلاوة الحياة بالمرارة والقنوط. فرومانسية رمضان حمود تتجلى في هذا المقطع الذي يبرز فيه صعوبة الحياة الاجتماعية وقسوتها.

وعلى نفس منوال نجد الشاعر أبي القاسم سعد الله يصف حال المجتمع من خلال وصفه صعوبة الطريق نحو الأصل والحياة فيقول:

يا رفيقي

[1] محمد ناصر، الشعر العربي الحديث، مرجع سابق، ص200

لا تلمني عن مروقي

فقد اخترت طريقي

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف، مجهول السمات

عاصف التيار، وحشي النضال

صاخب الأنات، وعربيد الخيال

كل ما فيه جراحا تسيل

وظلاما وشكاوي ووحول

تتراءى كطيوف

من حتوف

في طريقي يا رفيقي[1]

حيث يرى الشاعر طريقه مسدودة في مجتمعه، شائكة صعبة المسالك؛ فهو يرنو إلى الحرية والانعتاق، وعليه فالمجتمع والظروف المحيط به عند الرومانسيين تهزأ بالفرد وتقيده، لذلك يجب عليه أن يسعى إلى الحرية والخلاص. وما أحوج الجزائر وهي في فترة الاستعمار إلى الحرية والانعتاق.

ج)المرأة والحب:

[1] المرجع نفسه، ص218

لا يكاد يخل شعر شاعر عبر العصور من ذكر امرأة فهي الحبيبة والعشيقة والزوجة، والصديقة، وهي مصدر شقاء الشعراء كما أنها مصدر هناء وخصب ونماء."وقد لعب الحب دورا كبيرا في الآداب المختلفة على مر العصور فكان حديث الشعراء وموضوع كثير من القصص".[1]

فلم يتحرج الشعراء الرومانسيون من ذكر أوصاف حبيباتهم رغم أن المجتمع قد يرفض ذلك "فالرومانسي إن ضاق نفسا بالناس وأعوزته السعادة في كل ما حلم به من مسرات لم ينشد سعادته إلا في ظلال الحب".[2]

والشعراء الجزائريون الذين اتجهوا اتجاها رومانسيا قد هاموا بالمرأة والحب، وكتبوا قصائد تقطر حبا وعشقا خلدوا بها أوصاف حبيباتهم وإن لم يكتمل بهم الزواج. ومن هؤلاء الشعراء نجد الشاعر مبارك جلواح العباسي "والذي قد مر بتجربتين عاطفتين بدتا مريرتين مزقتا نفسه تمزيقا وجعلتاه يجنح إلى الزهد في الحب فالأولى في مدينة مستغانم والثانية موقعها الفؤاد المقدس بباريس فيقول في قصيدة بعنوان "وداعا غرامي".[3]

وداعا غرامي قد يئست ومن يحب دواما له الآمال في الحب ييأس

فأول حبي في سما (مستغانـــم) طوى نجمه الهجران في جنح حندس*

وآخر حبي قد فقدت هلالـــه بباريس في حيي الفؤاد المقـدس

[1] محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، مرجع سابق، ص183.

[2] المرجع نفسه ص185

[3] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص86

* حندس: مفرد حنادس: أكثر ثلاث ليال ظلمة في الشهر

فلم يبق لي من بعد هذين منيـــة تحسب قلبي في مراشـف لعـس **

نلحظ من خلال هذه المقطوعة كيف صور "جلواح" خيبته في الحب مرتين، وذلك من خلال تجربتين فاشلتين فعبر بصدق وإخلاص عن حبه " رغم بساطة الكلم والعبارة وما هنالك من مباشرة ".[1] فالحب بارد من خلال هذه القصيدة وإنما نزعة الحزن قد غلبت عليه.

ومن الشعراء الرومانسيين الذين تغنوا بالحب أيضا نجد الشاعر محمد الأخضر السائحي والذي يظهر من خلال هذه القصيدة على عكس سابقه جلواح العباسي متفائلا يحبه سعيدا به إذ يقول:

غدا نلتقي يا هواي الحبيب ونلقي طفولتنا الهانيـه

وننسى بها رعشات الضلوع وهزاتها المرة القاسيـه

وأوجاع قلبين ذاقا الأسى ومحا مرارته الداميـه

فنضحك طفلين في ملعب تظله دوحة حانيـه

نطل على النهر من ربوة ونقفز منها إلى الثانيـة

غدا حين يحظننا مبتغانا وتسكرنا الفرحة الطاغية[2]

** لعس: سواد اللثة والشفة، واللعسة سواد يعلو المرأة البيضاء، وهو سواد في حمرة

[1] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق ص86

[2] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق ص88

فالحب عند السائحي مدعاة للسعادة والهناء فهو ما إن يتلقى بالحبيب حتى تتحول ساعاته إلى لحظات أنس وسعادة وينسى كل هموم الدنيا ونوباتها فالحب عنده وكغيره من الرومانسيين ملاذ ومغر من الحياة وصعوبتها.

كما تألق الشاعر أبو قاسم خمار في وصفه للحبيبة وحسنها وسر جمال عيونها، فيقول

لحسنك أسلمت قلبي وحبي

فإن شئت أسلمت روحي إليك

وكوني جحيما يؤجج قربي

سأرمي بنفسي لتحرق فيك

بعينيك أسرار عمري أراها

تهدْ هدُ أعماقها خاطري

أحاول أن أستشف رؤاها

فأسرح في جفنك الساحر[1]

فالشاعر قد استسلم للحبيبة روحا وجسدا وشكا إليها وجده بها وما عيونها إلى مرآة له يرى بها أسرار حياته وآماله فكانت القصيدة تقطر حبا وشوا على طريقة الشعراء الرومانسيين الكبار.

[1] المرجع نفسه، ص91،92

ثانيا:

الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

المحاضرة السابعة: لمحة حول النثر الجزائري (الإرهاصات، النشأة، والتطور)

تمهيد (إرهاصات الحداثة في فن النثر الجزائري):

يُرجع كثير من الدارسين عصر الحداثة في الأدب الجزائري عامة والنثر منه على وجه الخصوص إلى عهد الأمير عبد القادر ليكون حدا فاصلا بين الأدب الجزائري القديم والأدب الجزائري الحديث، أبرزهم الناقد صالح خرفي، غير أن الأمر نسبي نوعا ما لأن الظاهرة لا تتحدد بعمل واحد بل يُحتكم فيها إلى محاولات عديدة، أما أبو القاسم سعد الله فيعتبر مرحلة الأمير آخر مراحل الأدب القديم، وقد تجلى فيها نبض الإحياء والانبعاث.

وإذا ذهبنا إلى رأي خلاف نأتي إلى الناقد عمار بن زايد الذي يرى أن سبب الامتناع عن عدّ فترة الأمير بداية فعلية للحداثة الأدبية في الجزائر تفردّه في الشعر دون أن تعاصره حركة أدبية نشيطة؛ لذلك فقد اعتبر أعماله الأدبية شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، وحتى الكتبة الذين كانوا حوله من أمثال قدور بن رويلة، وأبو طالب يغلب على كتاباتهم الطابع الإداري بدل الأدبي، وهي في خدمة نظام الدولة الفتية بدل أن يكون دافعها الإبداع الفردي[1].

ولئن كان الهدف هاهنا هو الظاهرة النثرية بالتحديد، لأنها ألصق بالتمدن وأحرى بتطوير الأدب، وتلوين فنونه، فإن هذا الشق الكبير من الأدب في الجزائر لم تسر فيه الروح إلا مع بروز ثلّة المصلحين في أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين من مثل عبد القادر المجاوي(1848-1914)، وأبو القاسم الحفناوي(1852-1941)، عبد الحليم بن سماية(1886-1933)، ومحمد بن أبي شنب(1866-1926)

[1] ينظر: عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص11-13

وغيرهم، لأن ما سبق هذه الفترة كانت العملة الرائجة فيه من نصيب الشعر، ولم يكن منتوج النثر اليسير يضاهي القصائد الطوال في الوصف والمدح وأغراض أخرى[1].

لا يمكن إلا أن تعد فترة هؤلاء إرهاصا للحداثة في الأدب الجزائر لاغير، حيث أنها لم تتجل معهم واضحة على الرغم مما اتصفت به الكتابة في عهدهم من تطور نسبي، فقد نشر محمد بن أبي شنب كتاب "أبو دلامة وشعره" سنة 1922، وكذا كتاب "تحفة الأدب في أشعار العرب" سنة 1906، وصدرت نصوص أخرى أدبية لبعض الأسماء بصحيفتي المغرب وكوكب إفريقيا سنة 1907، كما ترك "محمد بن عبد الرحمن الديسي"[أ] أثرا أدبيا جليلا في تصنيفه عصرئد بعنوان "مناظرة بين العلم والجهل" قصد إيقاظ العزائم وتحريك الهمم كما صرح بذلك، غير أن هذه الأعمال لم تكف لرفد الحركة الأدبية لقلة إنتاجها وعدم ديمومتها، وكذلك لعدم قدرة أدبائها على التخلص من تركة الصنعة اللفظية الموروثة من عصر العثمانيين "فلم يستطيعوا الذهاب بعيدا عن هذا الطريق، وظلوا مشدودين بقوة إلى بعض أساليب العصر بأكثر من سبب"[2]

2-البدايات الأولى لإرساء فن النثر في الجزائر:

أسهمت الرحلات نسبيا في تحريك الهمم وشحذ العزائم، فلم نسمع عن عالم كبير لم يبرح أرض الجزائر، أو لم تكن له رحلات مكوكية طوال حتى وإن قصد الحج والعمرة، حيث مكث يطلب العلم ويغرف من معين رجالاته، وبعد أن يحنّ إلى

[1] ينظر: محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 2003، ص 15

[أ] محمد بن عبد الرحمن الديسي: عالم جزائري ضرير(1854-1921) له منظومات في اللغة والعقيدة

[2] عمر بن قينة، فن المقامة في الأدب العربي الجزائري، دار المعرفة، دط، دت، ص 114

مرابعه، يحمل ما خف وزنه، وثقلت قيمته ويرجع لينشر علمه، ويبث معارفه في عقول النشء، فرجع ابن باديس والابراهيمي والعقبي من رحلة الحج، ورجع العربي من مصر، ومن تونس رجع أحمد توفيق المدني؛ وقد وصف الشيخ البشير الابراهيمي قيمة رحلات علماء الجزائر قائلا: "حمل أولئك النفر من مصر ومن تونس إلى الجزائر قبسا خافتا من الأدب العربي، ولكنه كان كافيا في تحريك القرائح والأذهان وقارن ذلك أو سبقه بقليل ونهوض الآثار الأدبية الجديدة من شعراء الشرق المجلين، وعرفت الجزائر شعر شوقي وحافظ ومطران والرصافي، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كانت تلك المؤثرات المختلفة الموارد قد فعلت فعلها في النفوس الناشئة التي هي طلائع النهضة الأدبية، وشعرت الجزائر بعروبتها الأصيلة التي كانت كامنة كالنار في الجمر"[1]

ثم هبت نسائم بعض الأدباء والمصلحين على أرض الجزائر فزارها محمد عبده سنة 1903، وأحمد شوقي من أجل الاستجمام والعلاج في العشرينيات من القرن العشرين، كما بدأ فن النثر يزدهر بدخول الطباعة والصحافة إلى الجزائر؛ حيث ظهر أول كتاب في الطب للحكيم محمد بن العربي قصد نيل شهادة أكاديمية، إذ قدّمه باللغة العربية إلى مدرسة الطب بباريس عام 1984، وعمد مبارك الميلي إلى تأليف كتاب في التاريخ الجزائري عبر عصوره، وألّف توفيق المدني كتابا قيما -في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تتأهب للاحتفال بمئوية احتلالها لأرض الجزائر- أسماه: حرب الثلاث مئة سنة.

[1] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 36

3-الانطلاقة الحقيقية لفن النثر الحديث في الجزائر:

عُدّت العشرينيات من القرن العشرين الانطلاقة الحقيقية للنهضة الأدبية عامة النثرية على وجه الخصوص من طرف عديد من الدارسين؛ حيث أكد عبد الملك مرتاض أن البداية الحقيقية للنهضة كانت سنة خمس وعشرين من القرن العشرين، عندما أسس ابن باديس جريدة المنتقد، وأسس مبارك الميلي قسمين للدراسة العصرية المنظمة بمدينة قسنطينة[1] ، ثم ترسمت المعالم، والخطوات الواثقة بظهور نادي الترقي على الساحة الثقافية سنة 1926، ذلك الذي شكل كعبة القاصدين، ودوحة تفرعت منها عديد النوادي، وقد ألجم ابن باديس أصواتا كثيرة حاولت البحث عن النهضة قبل هذه الفترة فجهر منذ القديم بهذه الحقيقة قائلا: "الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم أن برزت جريدة المنتقد، فمن يوم ذلك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت لتعرفهم من قبل"[2]

وبالتالي يتأكد إلى حد بعيد أن الفترة التي سبقت العشرينيات لا يمكن اعتبارها تاريخا لبداية النثر الجزائري الحديث، بسبب ضمور المحفزات النهضوية، فالكثير من الأسباب الحضارية لم تتأت لتأسيس نهضة حقيقية في تلك الفترة، وقد جزم الكثير

[1] ينظر: عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(1925-1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، المقدمة ص 9

[2] محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري، مرجع سابق، ص 15

أن "النهضة الأدبية لا يمكن أن تكون قد أتت قبل ذلك التاريخ، وذلك لأن ظهور المسببات لا يمكن أن يسبق ظهور أسبابها"[1].

ونحن عندما نجعل بداية نهضة الأدب الحديث في الجزائر في فترة العشرينيات فإنا لا نظلم إنتاجنا الأدبي البتة، إذ لا يمكن بحال أن نقارن بين النهضة في الجزائر وبين نهضة المشارقة الأدبية التي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر لاختلاف الظروف والأحوال- ، وأن المقارنة تظلمنا؛ إذ شتان بين استعمار استيطاني يقمع الحريات ويكبتها، ويحارب اللغة ويطمس الهوية ويحتقر الآخر، وبين حماية دولة ووصايتها على أخرى فاتحة لها كل مجالات العلم والثقافة، تعطيها وتأخذ منها.

إن تأخر نهضتنا الأدبية، - الذي يسعى بعض الدارسين إلى نفيه وإرجاعه إلى سنوات أو عقود خلت، ربما إلى مرحلة الأمير- لا يدل على ضعفنا الأدبي بقدر ما يكشف غطرسة المستعمر الذي جعل من أهدافه قمع الشخصية الجزائرية، حتى إذا أحس بالخطر الداهم من وراء الأدب راح يجري سلسلة اغتيالات استشهد جراءها أدباء وعظماء منهم الشيخ العربي التبسي، وأحمد رضا حوحو.

عرفت الساحة الأدبية الشعرية والنثرية انتعاشا بيّنا خلال هذا الزمن، حتى نجد من الأدباء من جمع بين الصناعتين مثل العقبي، أبو يقظان، السنوسي، الزاهري، سحنون، بوكوشة، ومنهم من تفوق في الكتابة النثرية أمثال ابن باديس، التبسي، الابراهيمي، الميلي، الورتلاني، توفيق المدني، باعزيز بن عمر، أبو يعلى الزواوي وغيرهم. إذ يُحسب

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 8

لهم سعيهم الدؤوب لتخليص النثر من التركة العثمانية الثقيلة بتلك الأساليب الموغلة في القدم، المثخنة بالصنعة والسجع، لأن أغلب كتاب القرون المتقدمة "أسرفوا في أغلال الصنعة والتقليد، ولم يلتفتون في موضوعاتهم إلى القضايا العامة للأمة، أو يعبرون عن مشاعر جماهيرها المختلفة، وإنما كانوا يدورون في فلك العواطف الشخصية الضيقة، بتحبير التعازي والتهاني، وتدبيج المساجلات والإخوانيات، وتصنيف التقاريض والشروح"[1].

ومن هنا بدأ النثر على اختلاف ألوانه يكتسح الساحة الأدبية دينيا، اجتماعيا وسياسيا، وكتب الأدباء في الخطابة والرسالة والترجمة وأدب الرحلة من الفنون القديمة، ثم كتبوا في المقالة والقصة والمسرح والرواية من الفنون الحديثة.

[1] ينظر: محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري، مرجع سابق، ص 24

المحاضرة الثامنة: فن الرحلة في الأدب الجزائري الحديث

تمهيد:

يعد أدب الرحلة فنا رائدا من الفنون النثرية في الأدب العالمي على مر الأزمنة، وذلك لاعتبارات عدة: دينية كرحلات الفتح الإسلامي لنشر دين الإسلام في بقاع الأرض الواسعة، اجتماعية كالعادات، والتقاليد، معرفية كطلب العلم، ومخالطة العلماء والرواة، وكذا لاعتبارات استكشافية كرحلة كريستوف كلومبوس إلى العالم الجديد (أمريكا)، بالإضافة إلى الأهداف العسكرية السياسية المتمثلة بالاتفاقيات والتمثيليات الدبلوماسية، كما ثمة رحلات سياحية تهدف أساسا إلى التعرف على طبائع البلدان والشعوب والقبائل، حيث خلقت الرحلة على اختلاف أهدافها تقاربا فكريا ومعرفيا بين الناس، كما ساهمت في توسيع القيم والأفكار والاستفادة من تجارب الآخرين، على الرغم من تجاوز مقاصدها في بعض نماذجها السيئة عندما أثرت على المجتمعات الضعيفة سلبا ففككتها نتيجة قوة الآخر وظلمه وجشعه مثلما حدث مع مجتمع الهنود الحمر في شمال أمريكا وجنوبها. غير أن المبتغى الأسمى من الرحلة أنها فن للالتقاء، والتعارف، واستيعاب الآخر، وتقبله، واحترام ثقافاته وموروثاته.

1- إرهاصات أدب الرحلة وميلاده في الأدب العربي:

يرى كثير من المهتمين بأدب الرحلة أن بداياته الأولى في البيئة العربية كانت مع فجر الفتوحات الإسلامية، حيث كثر الحديث عن رحلات الجيش الإسلامي نحو مشارق الأرض ومغاربها، إذ تمكن الفاتحون من بسط سيطرتهم على أقاليم كثيرة

قريبة وبعيدة، فكان لوصف المدن والبقاع "أهمية خاصة من الناحية الاقتصادية، فقد ساعدت الدولة الإسلامية في تحديد ثروة تلك البلاد ومعرفة قدراتها على دفع الجزية والخراج"[1].

ولهذا زاد الاهتمام بغرض الوصف وسرد الحقائق المتصلة بكل إقليم من ذكر للمناخ والنبات والحيوان والأنهار والوديان والعمران والثقافات والعادات والتقاليد، كما كانت هذه الصفات مهمة لمختلف الأقاليم المسلمة المهتمة بفريضة الحج والعمرة والتجارة، حيث ساعد أدب الرحلة في تقديم خارطة ممنهجة لمعرفة الطرقات وتفادي ممرات اللصوص وقطاع الطرق الذي احتلوا عديد المناطق واستغلوها.

والملاحظ على هذه المرحلة أنها كانت "تجري خارج كل إطار جغرافي وبصورة اعتباطية، إذ في جميع الأحوال لم يكن من قام بهذه الرحلة متخصصا يسعى إلى الهدف الجغرافي"[2].

أما في المرحلة الثانية فقد شهدت المدنية تطورا بالغا مع قيام الدولة العباسية، حيث قامت النهضة العربية على الفكر والعلم والمعرفة مستغلة بذلك اتساع الرقعة الجغرافية للخلافة وازدهار التجارة، إذ يمكن أن نميز نوعين من الرحلة في هذه المرحلة: الرحلة الجغرافية، والرحلة التنقيبية، وإذا كانت الأولى تقوم على "تقويم البلدان أو علم

[1] إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 11

[2] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكوناته السردية)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2014، ص 40

الجغرافيا، ذلك أن الرحالة عنوا عناية خاصة بوصف المدن والبلدان وذكر طرقها وشعابها وجوها ومناخها ونباتها وحاصلاتها"[1]

فالرحلة في المرحلة الأولى كانت ذات مهمة وظيفية، أساسها المعاينة، وتقويم البلدان والأمصار، أما في مرحلتها الثانية فكانت مبنية على البعثات الاستكشافية والتنقيبية لمقاصد اقتصادية بحتة، حيث ازدهر هذا النوع من الرحلات في عهد هارون الرشيد الذي أرسل عديد البعثات الاستطلاعية، نذكر منها على سبيل المثال "البعثة الاستطلاعية الرسمية التي خرجت من بغداد مستهدفة عقار العنبر الذي لم يلبث أن أصبح من لوازم حياة القصر والمترفين من الرجال والنساء"[2]

وإذا انطلقنا إلى مرحلة ثالثة وجدنا الرحلة – ومن بداية القرن الرابع الهجري تحديدا- تهدف إلى العلم وطلبه من خلال الرحلات العلمية إلى الأمم الأخرى، مثلما هو الحال مع الوفد العلمي الذي أرسله الخليفة المقتدر بالله بقيادة الرحالة والعالم العربي ابن فضلان سنة 309هـ إلى ملك الصقالبة الذي أدهشه الدين الإسلامي والمسلمين[3]، فكانت بحق رحلة مثمرة بالعلم والمعرفة والتفقه في الدين؛ حيث عرفت هذه المرحلة من الرحلة –عموما- أسماء من الرحالة الناجحين منهم قدامة بن جعفر، صاحب كتاب "الخراج وصناعة الكتابة"، والمسعودي صاحب كتاب "مروج الذهب" وغيرهما كثير،

[1] رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، المملكة العربية السعودية، دط، دت، ص 35

[2] ينظر: إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية، مرجع سابق، ص 115

[3] ينظر: عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكوناته السردية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2017 ص 45

ومن الأعمال البارزة والخالدة إلى يومنا "كتاب البلدان" لليعقوبي، "عجائب البلدان" لأبي دلف الينبوعي، و "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" لأبي حامد الغرناطي.

وأما عن البداية الفعلية لأدب الرحلة فقد بدأت جادة مع القرن السادس الهجري حيث ظهرت أسماء كبيرة كرست حياتها وجهودها للتأصيل لهذا الجنس فاشتهر منهم الإدريسي صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وأبو حامد الأندلسي، وابن جبير، ولكن الفقيه والصوفي أبو بكر محمد ابن عربي يعد أحد أخيار أدب الرحلة إذ يعده الكثير من المؤرخين والمهتمين "أول من وضع أسس فن الرحلات"[1] في كتابه "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة"، الذي وُسم باسم آخر هو: "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان"، ثم يليه ابن جبير الذي يمثل "الأب الشرعي لهذا النمط من الفنون الأدبية الجغرافية"[2] عندما خرج من غرناطة قاصدا حج بيت الله سنة 578 هـ، كتب خلال رحلته التي دامت زهاء السنتين والنصف عن كل المحطات في شكل مذكرات يومية حيث وُصفت بالانطلاقة الفعلية الحق أن على مستوى الفكرة، أو الأسلوب، كما اتسمت بالحكمة والرصانة والشمول جراء الكم الهائل من الأخبار والحقائق التي تضمنتها.

2- فن الرحلة في الأدب العربي المعاصر.

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم - المجلس العلمي للكلية - مكتبة الأدب العربي و اللغوي

[1] حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، المكتبة الثقافية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص 13

[2] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري (مكوناته السردية)، مرجع سابق، ص 49

يعد الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي رائد الرحالة الجدد في البلاد العربية، حيث كان كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" فاكهة البعثة العلمية التي بعثها محمد علي إلى أوربا وإلى فرنسا بالتحديد، ثم تلاه الشيخ أحمد فارس الشدياق الذي أصدر كتابين في فن الرحلة "كشف المخبأ عن فنون أوربا"، و"الواسطة في معرفة أحوال مالطة".

وبعد زيادة السكان، وتطور وسائل النقل في مطلع القرن العشرين انتشر فن الرحلة بمختلف أشكاله، وصار جنسا أدبيا متخصصا، احتفى به كثير من الكتاب من مثل أمين الريحاني، الذي جال وصال في كثير من البلدان العربية مشرقا ومغربا وخلد رحلاته في أبرز كتابين له "المغرب الأقصى ونور الأندلس"، و"ملوك العرب"، ثم توالت أسماء أخرى في الظهور منها: البتانوني، محمد حسين هيكل، محمد الخضر حسين، حسين فوزي، طه حسين، وغيرهم كثير.

3- فن الرحلة في الأدب الجزائري:

تنقسم الرحلة في الأدب الجزائري إلى نوعين بارزين: داخلية انحصرت في الرحلات التي لم تتجاوز ربوع تراب الجزائر ، وأخرى خارجية تختص بالرحلات خارجه.

أ) فن الرحلة الداخلية في الأدب الجزائري:

تمثلت الرحلة الداخلية في الجزائر في مبادرات شخصية للمفكرين والدعاة؛ إذ تميزت بأهدافها وغاياتها القريبة والنبيلة في نشر الدين والحرص على إقامته، وكذا مساعدة المحتاجين وبث مبادئ التسامح بين جماعات المجتمع وأفراده.

تمايزت أساليب الكتّاب في تدوينهم لرحلاتهم الداخلية؛ حيث وظف الشيخ البشير الابراهيمي أسلوب المباشَرة في الإخبار عن رحلته بين الشرق والغرب، بل وحتى في رحلاته الخارجية إلى المشرق مثله مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس، واعتمد الشيخ والمصلح أحمد توفيق المدني قالب السرد في كتاباته النثرية، إذ حاول وصف الواقع المزري للفرد الجزائري بتفصيله وحيثياته دون تحريف أو تزييف.[1]

ومما لاشك فيه أن رحلة الداخل الجزائري لاسيما رحلة ابن باديس كانت تهدف إلى بعث العلم والمعرفة والتفقه في الدين، فقد تحدث عن زيارته للغرب الجزائري، ولقائه ببعض الدعاة والمشايخ مثل أحمد بن علية الذي أقام على شرف العلامة حفل عشاء إذ يقول: "بالغ في الحفاوة والإكرام، وقام على خدمة ضيوفه بنفسه، فملأ القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر... ومما شاهدته من أدب الشيخ مضيفنا وأعجبت به أنه لم يتعرض أصلا لمسألة من محل الخلاف يوجب التعرض لها على أن أبدي رأيي وأدافع عنه"[2] مما يكشف عن شخصية حكيمة، كريمة، قوية وعادلة، لا تنكر جميلا ولا تجحد معروفا.

كما حفلت رحلات الشيخ الداخلية بالوصف والإخبار إذ يقول منها: "كنا نرى في جميع المجالس إقبالا وقبولا مما لاشك معه في بقاء الأثر الطيب في القلوب إن شاء الله"[3]، ويقول في موضع آخر واصفا استقبال الناس في مدينة مسكيانة بالغرب

[1] ينظر: عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 1974، ص 73

[2] ابن باديس: الآثار، ج4، جمع وتقديم: عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص 312

[3] ابن باديس: الآثار، مرجع سابق، ص 305

الجزائري: "وبالغ أهلها في الاحتفاء والاعتناء، وكانت مجالس في عدد محلاتهم التجارية لم تخل من تعليم وتذكير"[1]. وأما المدن الداخلية فقد نالها من الوصف الكثير في رحلات ابن باديس؛ فها هو واصفا مدينة غليزان التي أشار إليها بالإثراء والمدح وعلو المكانة إذ يقول: "هي مثل بلدة الأصنام من ناحية التجارة بل أكثر، ومثل مليانة من ناحية المعارف"[2]، ويقول مادحا المزابيين الذين استوطنوا المكان للتجارة: "استدعانا إخواننا المزابيون إلى محلهم وأقاموا لنا احتفالا حضره جميع أفرادهم واستدعوا بعض أعيان البلد، فشاهدنا من أدبهم وحسن استقبالهم لجمعية العلماء ما سرّنا بهم كثير السرور"[3] مما يدل على اهتمام المزابيين بالعلم والعلماء وتكريمهم لهم والتفافهم حول قضية الوطن في صورة للوحدة والتآزر الفكري والمعتقدي، كما هي علامة دالة على مكانة الشيخ في ربوع الوطن شرقه وغربه

ب) فن الرحلة الخارجية في الأدب الجزائري:

تعددت الأقطار والأقاليم التي زارها الرحالة الجزائريون بتعدد أسباب الرحلات على مر التاريخ، إذ تشكلت البدايات الأولى للرحلة في الفكر الجزائري على أيدي علماء اللغة والدين؛ فبرز بكر بن حماد التيهرتي(200-292هـ) في رحلته إلى تونس حيث درس بالقيروان كمحطة أولى قبل أن يواصل رحلته إلى بغداد أين التحق بالخلافة العباسية فنال من خلالها شرف السبق كأول رحالة جزائري في هذا النوع الأدبي، وقد التقى

[1] المرجع نفسه، ص 310

[2] المرجع نفسه، ص 311

[3] المرجع نفسه، ص 310

هنالك بفقهاء وأدباء ومحدثي الأمة، كما قربه الخليفة المعتصم إليه بعدما مدحه في حكمه، وجعله من شعراء البلاط، لكنه ما لبث أن عاد إلى القيروان متفرغا للتدريس بها، مستقبلا وفودا من كل بلاد العرب، إلى أن عاد به الحنين إلى مسقط رأسه تيهرت سنة 289هـ.

ولئن كان ابن حماد أشهر الرحالة الجزائريين وأسبقهم في القرون الهجرية الأولى غير أنه لم يكن أوحدهم، إذ ظهرت بعده أسماء أخرى ذات وزن ثقيل في فن الرحلة؛ فهاهو زكريا بن بكر بن أحمد التيهرتي المعروف بابن الأشج التيهرتي(310-393هـ)، وهو أحد العلماء المحدثين الذين طلبوا العلم في كل الأمصار أبرزها الأندلس ومصر، وكذا أبو مروان عبد الملك الطبني-نسبة إلى طبنة-(396-475هـ) الذي اشتهر برواية الحديث حالا مرتحلا بين قرطبة، ومصر، والحجاز إلى أن قتل بقرطبة[1]. قال عنه أحمد المقري التلمساني صاحب نفح الطيب: "من ثنية شرف وحسب، من أهل حديث وأدب، إمام في اللغة متقدم، فارغ لرتب الشعر متسنّم، له رواية بالأندلس، ورحلة إلى المشرق..."[2]

هذه الأسماء هي التي مهدت الطريق وعبدته أمام من برز من الرحالة بعدها؛ إذ ظهر "يوسف بن ابراهيم الورجلاني"(500-570هـ) الذي نوّر بني بيئته في علوم الفقه والتفسير والتاريخ بعد رحلاته إلى الحجاز والشام مرورا بمصر، وساهم مع "أبي الحسن

[1] ينظر: محمد طمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ب ط، 1983، ص 68

[2] المرجع نفسه، ص 85

يحي الزواوي"(546-628هـ)، و"أبي القاسم التوجيبي التلمساني"(م730هـ) وغيرهما "في تخليد الفترة الزاهية للرحالة الجزائريين الذين فاق عددهم الخمسة عشر عالما رحالا في القرن السادس الهجري"[1] وما بعده، حيث ألف في الفترة نفسها "عبد الله المقري التلمساني"(ت758هـ) "رحلة المتبل" ضمنها عصارة رحلته إلى المشرق، فحملت معاني العبادة والدعوة إلى العلم إذ وصفها الدارسون بأنها "رحلة علمية، ودينية، قصد منها طلب العلم، والقيام بالحج"[2] ، كما كتب الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي البجائي عن رحلته إلى المشرق، وقد عرف باهتمامه بالأدب، وفصاحة اللسان، منتهجا طابع الوصف والتأريخ، إذ قال عنه ابن الخطيب: "... كاتب الخلافة، ومشعشع الأدب، الذي يزري بالسلافة، كان بطل مجال، ورب رواية وارتجال، قدم هذه البلاد مالقا وقد نبا به وطنه.. ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة، ومرية بائعة، ثم آثر قطره فولى وجهه شطره، فاستقامت حاله، وحطت رحاله، وله شعر أنيق، وتصوف وتحقيق، ورحلة إلى الحجاز، سعيها في الخير الوثيق، ونسبها في الصالحات عريق"[3] .

وإذا انتقلنا إلى العهد العثماني فقد شهد القرن السادس عشر الميلادي نشاطا كبيرا وانبعاثا لافتا في مجال الرحلة وتدوينها عند أعلام الجزائر، إذ سلكت مسارات مختلفة

[1] ينظر: عمار هلال، العلماء الجزائرين في البلاد العربية والإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1995، ص 238

[2] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت، ط1- 1971، ص 180

[3] أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس ج 07، دار صادر، بيروت-لبنان، دط، 1968، ص339

وأهداف متباينة، فارتبط بعضها بالعلم، وآخر بالدين، أما الوجهة فتكاد تكون أغلبها إلى البلاد العربية شامها، وحجازها، مغربها الأقصى، وأندلسها.

اشتهر أكثر من اشتهر في هذه الفترة "أحمد المقري التلمساني"(986هـ-1572م) الذي جاب حواضر المغرب الأقصى من فاس ومراكش وبالس العلماء والمفكرين والدعاة؛ مخلدا رحلاته في مؤلفات منها الجنايذ فيمن لقيته من الجهابذ" وكذا سافر إلى جامع القيروان أين اشتغل قاضيا وخطيبا، كما فادته رحلات الحج والعمرة إلى المشرق العربي؛ إذ حط الرحال بالحرمين الشريفين، فالمدينة المنورة التي دون بها رحلته في كتاب وسمه"فتح المتعال في مدح النعال"، وفي مصر التي زارها رفقة القدس والخليل وغزة ودمشق ألف كتابه الأشهر "نفح الطيب في غضن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب".

ويعد الشيخ العلامة الحسين الورتلاني(1125هـ-1713م) من الرحالة الذين اشتهروا إبان الحكم العثماني، الذي تعلم وعلم الفقه والنحو والتصوف والتوحيد، كمت اهتم بالأدب والتأليف والتاريخ، وزار عديد البلدان حيث عرف في بيئته بكثرة الترحال فوطأ بالأقدام تونس وطرابلس ومصر والحجاز، واتصل بالعلماء من كل الأقطار وحضر مجالسهم.

تميزت رحلة الورتلاني بتدوين الأخبار والجغرافيا، وتاريخ البلدان العربية حيث جاء ذلك في صفوة كتابه "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، إذ كان استجابة لواقع مزر في كتابة التاريخ والاهتمام بالأخبار، فقد قال في كتابه مبررا سبب كتابته:

"... لاسيما أهل بلادنا، فإن علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم فيحسبونه الاستهزاء، أو اشتغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها"[1]؛ فالتاريخ عنده قيمة تصنع مستقبل الشعوب وتحرك رغباتها وتقوي عزيمتها، إنه "موعظة للمعتبرين، وتذكرة للموقنين وتبصرة للمتفكرين"[2].

والمتأمل في رحلة الورتلاني عموما يكتشف نمطا تفصيليا جديدا في كتابة الرحلة يستشف من خلاله الوجه الجديد للرحلة في التاريخ العربي الحديث، أين تجتمع الحضارة مع التاريخ والجغرافيا، وتتقاطع العلاقات والشخصيات لتنتج روح الزعامة في الأمة، ومتعة تذوق أخبار السابقين من المفكرين والعلماء والفقهاء.

كما برزت أسماء أخرى خلدتها كتاباتها في فن الرحلة إبان حكم العثمانيين للجزائر من أمثال: الشيخ الطبيب والرحالة محمد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري(1107هـ-1695م)، والشيخ الرحالة محمد بن أحمد المعسكري المعروف بمحمد بوراس(1150هـ-1757م)، وباي وهران محمد الكبير(1768-1880م) الذي اشتهر في رحلانه بوصفه للصحراء الجزائرية ونقل تفاصيلها، وكذا الأمير عبد القادر الجزائري(1222هـ-1808م) والذي يعد آخر الرحالة في الفترة العثمانية؛ وهو الذي جمع بين حقبتين تاريخيتين مهمتين في مسار التاريخ الجزائري. حيث ضمنها تفاصيل

[1] الحسين بن أحمد الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908، ص 597

[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها

رحلته مع والده إلى الحجاز والشام وبغداد، قبل أن يعود إلى الجزائر متفرغا لمقاومة المستعمر[1]

كانت هذه أزهى فترات أدب الرحلة، ومع تنوع أغراض الأسفار و الرحلات في العصر الحديث وتعدد مذاهبها وتشعب الأقطار والأمصار التي وصل إليها الجزائريون غير أن نجم أدب الرحلة أخذ في الأفول شيئا فشيئا؛ إذ لا حاجة لمدونات وصفية تاريخية عملاقة بما أن السفر أصبح متاحا أكثر لعدد كبير من الأفراد والجماعات مع تطور الحياة وتوفر وسائل النقل وانتشار الأخبار عبر الصحف والمجلات وغيرها، إلا أنه لا يمنع أن نأتي ببعض نماذج من أدب الرحلة في العصر الحديث فنجد مثلا في نقل البيئة الأوروبية مدونات محمد الصالح رمضان "سوانح وارتسامات عابر سبيل"، وصف فيها ما شاهده وعاشه من مدينة مرسيليا إلى فرصوفيا؛ إذ يقول في وصف الأولى: "والمدينة التجارية الكبرى التي تكنتفها الجبال والتلال من ثلاث جهات، وأن الميناء يقوم على لسان من البحر طويل يتوغل في قلب المدينة كالسيف يقسمها نصفين متعادلين"[2].

[1] ينظر: عبد القادر بن محي الدين، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية، تح محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، ط2، 1995، ص 23

[2] محمد الصالح رمضان، سوانح وارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004، ص 55

المحاضرة التاسعة: فن الخطابة في الأدب الجزائري الحديث

1- مفهوم الخطابة:

أبدع النقاد والدارسون في تقديماتهم لمفهوم الخطابة الذي استمد مرجعيته أساسا من القصد والوسيلة، ولعل أهمها ما نجده في الفكر الغربي القديم عند أرسطوطاليس بالتحديد الذي يعرفها بأنها: "قوة تكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[1]، أما إذا انتقلنا إلى الفكر العربي نجد الشريف الجرجاني" يحدّها بأنها: "قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"[2]، إذ يركّز على مقدمة الخطبة بعدّها رأس العملية التخاطبية، ومفتاح الولوج إلى المادة المعرفية، ثم ينتقل إلى تحديد صفة الخطيب مشترطا فيه حسن الخلق وصدق الحديث، ثم إلى السمة الثالث للخطبة وهو قوة الحجة والبرهان فيما ينفع المخاطب من ترغيب في الحَسن، وتنفير من المشين. وإذ نكتفي بهذا التعريف لا ننكر جهود نقاد كثر صعب إحصاؤهم أدلوا بدلائهم في فن الخطابة ودرسوه وتدارسوه من كل ضفافه وشطوطه.

2- أهداف الخطبة:

[1] أرسطو، الخطابة (الترجمة العربية القديمة)، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بدوي، وكالة مطبوعات الكويت، دار القلم، بيروت-لبنان، دط، 1979، ص34

[2] محمد العمري، في بلاغة الحجاج الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية أفريقيا الشرق، المغرب، ط 2، 2002، ص 81

- الاستمالة والإقناع
- التهذيب والتربية والإصلاح
- بعث الأخلاق ونشر الدين

3- شروط الخطيب:

- الذكاء والفطنة
- الثقافة الواسعة وامتلاك الحجة
- الاندماج في المجتمع ومعرفة أحواله والتفاعل مع أفراده وجماعاته

أما أنواعها فتتنوع الخطبة حسب موضوعها: سياسة، ودينا، وحربا، وغيرها...

4- تطور فن الخطابة في الجزائر:

أ) مرحلة الأمير عبد القادر الجزائري:

عادت إلى الخطبة مكانتها وهيبتها مع الأمير عبد القادر بوصفها فنا هادفا للإفصاح والإبانة، حيث أصبحت اللغة قوية، والأسلوب متينا مقنعا، كما تنوعت المواضيع بين الشدة واللين؛ فتناولت أكثر ما تناولت استنهاض الهمم وبث الحماسة في نفوس المجاهدين متسمة بالقرينة العقلية والحجة الشرعية الدامغة، فقد عرف الأمير بالفطنة وحسن التدبير والقيادة، كما عرف بمحاوراته ومحاججاته للمستعمر في عقد الاتفاقيات والهدن.

ب) مرحلة ما بعد الأمير:

يتفق المهتمون بالشأن الأدبي والتاريخي على أن فن الخطابة شهد انتكاسة كبرى إذ غابت الخطب القوية الراقية، وغاب معها الأسلوب الفني المحكم جراء حالة الركود العسكري والسياسي، وسيطرة المستعمر على دواليب السلطة وأمور الشعب على الرغم مما أبداه الجزائريون من مقاومات شعبية محتشمة في مناطق متفرقة من الوطن، غير أن هذا لاينفي وجود بعض المهتمين بفن الخطابة عصرئذ أبرزهم "صالح بن مهنا القسنطيني" الذي عدّه البعض المبشر الأول للنهضة الإصلاحية في الجزائر.

ج) مرحلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لا يختلف اثنان على أن مرحلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسست سنة 1932 هي أزهى المراحل التي مر بها فن الخطابة في الجزائر على الإطلاق، حيث أدرك علماؤها مكمن القوة في التأثير على الشعب الذي جرفته الأمية والبدع والجهل بعد عقود من التضييق الثقافي الفرنسي الممنهج، ولعل الخطاب الديني التعليمي هو أول ما يطالعنا في هذه الفترة، بوصفه محركا للعقول قبل القلوب، حيث تأثيث المعنى يقابله انفعال اللغة، فالشيخ العلامة "**عبد الحميد بن باديس**" يلقي خطبة قوية سنة 1937، يكبر من خلالها صبر الأمة ومقاومتها لدسائس المستعمر الغاشم، ويهيب فيها تمسكها بقيم الوطنية والهوية القومية العربية قائلا:

"الحمد لله الذي فضلنا بالعقل، وكملنا بالعلم وجملنا بالفضيلة وأسعدنا بالهداية والتوفيق.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الكامل بالفطرة، المكمل بالعصمة المبعوث للخلق رحمة.. وعلى آله المنبثقين من أكرم النعم... وعلى أصحابه الذين نشروا الملة فبيّنوها.. وعلى التابعين..

أما بعد، فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام، وأنصار العلم والفضيلة، حوربت فيكم العربية حتى ظنّ أنّه قد مات منكم عرقها وفسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاقها فترك الحصون والمعاقل، ويهزّ كُتّابكم أقلامها فتصيب الكِلا والمفاصلَ، وحورب فيكم الإسلام حتى ظنّ أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد.. وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم... وحورب فيكم العلم حتّى ظنّ أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة... فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا وتشيدون له صرحا سامقا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين..."[1]

أما "الشيخ البشير الإبراهيمي" فيتولى في خطبته عن جمعية العلماء المسلمين مهمة التعريف بها وبإنجازاتها بعد فترة قصيرة من تأسيسها، فيحمّل خطبته قيما أخلاقية، أبعادا وطنية، ودعوة إصلاحية متكئا في ذلك على فصاحة لغته وصلابة أسلوب، وقوة العبارة وشدة وقعها، وصدق اللهجة ووافرية الطرح، وجودة التمثيل، فيقول:

"أيها الإخوة الكرام:

[1] عبد الحميد بن باديس، آثاره، ج4، جمع وتقديم: عمار طالبي، مرجع سابق، ص 202-203

ثلاث سنوات مرّت على هذه الجمعية المباركة وكأنّها يوم مر أو ليلة تقضت بالسهر، فإذا كانت المبادئ تدل على الخواتم فستمر عليها -إن شاء الله- السنون الكثيرة، وستستقبلها نامية مباركة فيها، فلا تستقبلها إلا كما يستقبل الصائم عيدة مشوية وأجرا، والطرح كلف، والملجج في البحر صعيدة، فرحا وبشرى واستدبار تلف، ولا تستقبلها إلا عن سنّة تحيا وبدعة تموت وحق يشاد وباطل يهدم، وحقيقة تثبت ووهم يتلاشى وفضيلة تنشر ورذيلة تقبر.

ثلاث سنوات... وما هي بالشيء الكثير في أعمار المبادئ والمشاريع التي تستمد حياتها من العناصر الخالدة، وإن كانت شيئا كثيرا في أعمار الكائنات الحسية التي تستمد حياتها من العناصر الفانية.

إنّ وجود هذه الجمعية هو وجود الحقائق الخالدة وإذا كانت تعمل لمعنى لا يحده الزمان فهيهات أن يحدها ليل ونهار.. إن هذه الجمعية كالسحاب ساقه الله على بلد ميت فلا يقلع حتى يجيبه.. وإن سائق المطر للبلد الميت هو سائق الجمعية لهذا الوطن المشرف على الموت..."[1]

وإذا انتقلنا إلى "**الشيخ العربي التبسي**" نجده يسخّر خطبه لخدمة ونصرة القضايا الوطنية، ومحاربة المستعمر، والذود عن قيم المجتمع الأصيلة، المنبثقة عن تعاليم الدين الإسلامي؛ فها هو يقول في إحداها محفّزا ومباركا شمائل الأفراد:

[1] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص 138-137

"إنّكم معشر الإخوان تقومون بعمل عظيم في سبيل الدين الحنيف، والعربية، والوجود المحترم...

إنّكم أيها الإخوان تقومون بواجب أداء الأمانة حق الأداء وإنّكم لتربطون الأولاد بالجدود، وتتعرضون عن طيب خاطر لمحن الدنيا ومصائب العيش، وتكافحون لسرد طائلة العدوان، وتفتحون بأيديكم أبواب السعادة في وجه الأمة..

يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب الناس وقبل أن يحاسبنا الناس..

يجب علينا ونحن حاملوا راية الدين والقرآن أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر تضحية من أولئك المبشرين والمبشرات الذين هاجروا البلاد والأوطان...

إنّ الذين جاءوا ديارنا هذه لم يكونوا أكثر منّا مالا وولدا وغنما.. كانوا أكثر منا علما ونظاما، فلنكن نحن دعاة وبناة العلم والنظام وفينا -والله- نواة هاتين القوتين... ولنكن مع ذلك مثال الاستقامة الدينية.. فديننا السمح دين أعمال لا دين أقوال..."[1]

ونختم نماذج خطب الجمعية بخطبة للشيخ **"أحمد توفيق المدني"**، الذي ألقى خطبه بالمسجد الحنفي بالجزائر العاصمة أين خاطب ضمير الأمة بنبرة التحدي للمستعمر الفرنسي إذ يقول:

[1] ينظر: العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتحقيق: د. شرفي أحمد الرفاعي، ط1، 1981، ص 201-202-203

"إن هذا الاجتماع وهو الأول من نوعه يقع في ساعة سلّط فيها الاستعمار سوط نقمته وعذابه على الشعب الباسل البطل، فالحقوق الإنسانية اضمحلت والأرض انتزعت من أصحابها، وأبواب الكسب الشريف أو صدت في وجه عموم الجزائريين، وأصبح اسمهم عند المستعمرين (البيتلو) و (الترون دي فيقي) أي سيقان أشجار التين، وأصبحنا نرى جهات من الوطن مكتوبا عليها دون حياء أو خجل: ممنوع دخول العرب والكلاب، لقد أصبحوا في بلادنا كل شيء... وأصبح الجزائريون لا شيء.."[1]

5- خصائص فن الخطابة في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر:

تُظهِر الخطب المنتقاة -وعلى الرغم من الاختلاف النسبي بين طبائع الشيوخ الخطباء ونفوسهم- تشابها بيّنا في مواضيعها ومرامیها، وخاصة في خصائصها الفنية والأسلوبية التي نجملها فيما يلي:

- قوة العبارة، دقة البصيرة ووضوح الرؤية وبعد نظر الخطيب، وثقافته العالية.
- صلابة الحجة من القرآن، والحديث، والتاريخ، والواقع، ومخاطبة العقول والقلوب.
- نصرة القضية الوطنية ومحاربة المستعمر.
- إصلاح المجتمع وتربيته وتوعيته.
- بناء العقيدة السليمة والصحيحة.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص 82

- إدراك الخطيب التام لمجريات الواقع الاجتماعي المتأزم نتيجة الممارسة الهمجية للمستعمر.
- التمكن من آليات النصح والإرشاد، حيث الإلمام المعرفي بالشرع والعقل والواقع والتجربة.
- عذوبة اللغة، وفصاحة اللفظ الصادرة عن وعي الخطيب ومعرفته وعلمه وخبرته وممارسته.
- حسن الترغيب وقوة الترهيب، بالاعتماد على شواهد القرآن الكريم وهو غالبا ما اتصفت به الخطب الإصلاحية في الجزائر.
- استعارة نماذج التاريخ خدمة للقصد والمرمى وتقوية الحجة.

المحاضرة العاشرة: فن المقال في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

1- تعريف المقال:

يتفق جلّ الدارسون بأن المقال قطعة نقدية محدودة الطول كتبت بطريقة عفوية، لتعبر عن موضوع معين، باستعمال الحجج والبراهين، قصد إقناع المتلقي والتأثير فيه، حيث "يهدف كاتبه من ورائه إلى التعبير عن مشاعره وإحساسه تجاه الطبيعة أو اتجاه الحياة، ويعكس فيه تجربته، ويعنى فيه بالصياغة والجمال واللذة، ويراعي فيه التركيز ما أمكن"[1]

فالشعور والحجة من أهم صفات فن المقال، لأنّه يهدف إلى الإقناع، والتأثير، والفاعلية القرائية.

2- عوامل ظهور فن المقال:

حسب عبد الله الركيبي، يعود ظهور فن المقال في منتصف القرن الـ 20 في الجزائر إلى العوامل التالية[2]:

- انتشار الصحافة.
- الصراع الفكري بين المثقفين.

[1] محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983، ص 136

[2] عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص158- 159

- انتشار الوعي والتعبير عن الرأي.
- الرغبة الجدية في الإصلاح.
- الاحتكاك بالصحافة الأجنبية (العربية بالتحديد)
- تشعب المشاكل الاجتماعية والسياسية.

3- تطور فن المقال الأدبي في الجزائر:

على الرغم من الظهور المتأخر للمقال الأدبي عن المقال الصحفي الذي ظل يخضع لإشراف الإدارة الفرنسية التي لم تهتم إلا بالخبر الذي يساق إلى الناس بأبسط طريقة ممكنة، إلا أنّ وجوده ارتبط بالصحافة الوطنية عندما اتخذت من اللغة العربية لسانا لها في مطلع القرن العشرين، فظهر كتاب بارعون نهضوا بالمقال الأدبي، الذي انتعش بأقلامهم وتطور بكتاباتهم"[1].

فنشأة المقال الأدبي وتطوره في الجزائر إذن لم يأت من العدم، بل من انتشار الصحافة العربية وانتعاشها بسبب الصلة بالمشرق، واقتفاء أثر المشارقة في هذا الصدد، إلى جانب الحركات السياسية والإصلاحية التي لعبت دورا باروا في إرساء اليقظة الفكرية التي أوجبت التعبير عن الرأي المترجِم للوعي الثقافي، ثم واصل المقال الأدبي رقيه إلى أن أصبح وقبل الثورة التحريرية يضاهي أرقى المقالات الأدبية في أي قطر عربي آخر.

[1] ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص82

و المفارقة أن يكون للاستعمار انعكاسا إيجابيا في تطور فن المقال حيث أخرج الكتّاب أنفس ما عندهم من مواهب وعبقريات مما أثرى الحركة الأدبية في شكل واضح للعيان؛ "فقد عرفت هذه الفترة طبقة ممتازة من كتّاب المقال الأدبي التي لم تستطع العقود الثلاثة من القرن العشرين أن تظهر بها"[1] ؛ إنها الفترة التي عرف فيها المقال الأدبي: ابن باديس، البشير الابراهيمي، محمد سعيد الزاهري، أحمد المدني، محمد العابد الجيلالي، باعزيز بن عمر، أبا العلي الزواوي، فرحات الدراجي، الطيب العقبي، أحمد بن دياب، أحمد رضا حوحو وغيرهم ممن نوروا المقال الأدبي بفعل أقلامهم، ونتق قرائحهم، وشدة هممهم في إحياء العربية، وبعث الأدب في ربوع الجزائر.

كما لا نغفل عن الحاجة النفسية التي دفعت بالمثقف الجزائري إلى ترجمة أحاسيسه وخلجات صدره عن طريق الكلمة المعبّرة، فأُطلق العنان إذّاك إلى الصراع الفكري الذي عاد بدوره بالفائدة على النثر العربي في الجزائر بأرقى المقالات الأدبية أسلوبا، ولغة، وإحساسا، وقوة حجة.

أما الصحف التي حملت المقال الأدبي في هذه الفترة وخلّدته كانت "الشهاب" و"البصائر" أبرزها على الإطلاق، وقد جنح المثقف الجزائري إلى اتجاهين اثنين في كتابة مقالاته: المقال الأدبي الإنشائي، والمقال الأدبي الإصلاحي[2]؛ هذا الأخير الذي كان له نصيب الأسد في التأثير على الساحة الفكرية في الجزائر كما ونوعا؛ حيث أن رجال الفكر الإصلاحي هم الذين تأثروا بالثقافة العربية وبتراثها العريق وبنهضتها

[1] المرجع نفسه، ص 84

[2] ينظر: عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 136

الحديثة في شتى الميادين: الثقافية، والأدبية، والفكرية، ومنهم نميّز نوعين من كتّاب المقال:

- نوع اهتمّ بالفكرة وتوصيلها بأسلوب صريح ومباشر، كما لم يغفل عن اللغة من حيث أصالتها، ومفرداتها، وقدرتها على تبليغ المقاصد، بل والعناية ببعض خصائص الأساليب العربية وبيانها وقوة التعبير وجودة الصياغة؛ حتى يتسنى للفكرة أن تصل في أعمق صورها ! وهو النوع الأكثر والنموذج الغالب في الكتابات الإصلاحية؛ يأتي في مقدمة هؤلاء الشيخ بن باديس، والعربي التبسي، ومبارك الميلي، وإلى حد كبير الطيب العقبي، وعمر راسم، وغيرهم ممن يغلب عليهم الطابع الذهني المتيقظ، والروح الدينية الواضحة.
- أما النوع الثاني من كتاب المقال الإصلاحي فهم أولئك الذين اعتنوا -إلى جانب الفكرة- بالتصوير والتعبير، واهتموا باللغة وحدها لا من حيث نقاؤها وأصالتها وصفاؤها كما فعل رواد النوع الأول، بل عنوا بها من حيث الإيحاء وجمال التعبير ومراعاة البيان وصوره، وينقسم هؤلاء بدورهم إلى فصيلين اثنين؛ الأول منهم لاءم بين الفكرة والأسلوب العربي التقليدي والبلاغة العربية القديمة ويأتي في مقدمتهم الشيخ البشير الإبراهيمي. وفصيل ثان حاول أن يجدد في الصياغة والمحتوى معا، ويمثل هذا التيار أحمد رضا حوحو، ورمضان حمود

وغيرهم ممن عبروا عن أحاسيسهم تجاه الطبيعة وجمال الكون أو اتجاه الحياة بوجه عام محاولين تصوير تجربتهم في الحياة.[1]

أما عن أبرز القضايا التي عالجها فن المقال لاسيما المقال الإصلاحي في الجزائر فتتمحور حول:

- توضيح حقيقة المستعمر.
- توضيح أهداف جمعية العلماء المسلمين.
- توضيح أهمية تحرير العقول.
- الحديث عن مشاكل الزواج والمهور وبعض القضايا الاجتماعية.
- توضيح أهمية التعليم.

[1] ينظر: عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 161

المحاضرة الحادية عشر: القصة في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر

1- تمهيد، ما القصة؟:

تعد القصة جنسا أدبيا حديث النشأة قياسا بما سبقها، كالشعر، غير أنّ جذوره وإرهاصاته ضاربة في عمق التاريخ الإنساني، إذ تكاد لا تخلو أمة من ظاهرة القص التي نشأت مع نشوء الثقافة الاجتماعية الإنسانية؛ لأن الفطرة الاجتماعية نفسها تقتضي وجود فعل الحكي لتلبية حاجات تنفيسية ونفسية للأفراد والجماعات، فقد عرف العرب منذ الجاهلية ما أطلق عليه بأخبار الأمم وأيامهم؛ حيث كان الناس يتحلقون حول قاص ويتسامرون بسماع القصص التي يرويها لهم في مناسبات معينة، إذ تميّزت كل أمة بفنها الشعبي الذي يستند أساسا على فعل السرد.

كما حفل القرآن الكريم بالقصص التي أراد الله من خلالها تعليم الإنسان وتربيته وفق منهج يتوافق وطبيعة النفس البشرية التي تميل إلى تتبع الأحداث والشخصيات والإفادة من العبر واستخلاص الحكم المرجوة من ورائها؛ فجعل القرآن القصة "إحدى وسائله في تحقيق غاياته، من إثبات الوحي، وتأكيد الرسالة، وتأصيل الدعوة الإسلامية، ولكنها لا تجيء عملا فنيا مستقلا، وإنما تخضع للغايات التي يهدف إليها"[1]

بيد أن القصة بمفهومها الحديث "تروي حدثا بلغة أدبية راقية عن طريق الرواية، أو الكتابة، ويقصد بها الإفادة، أو خلق متعة ما في نفس القارئ عن طريق أسلوبها،

[1] الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة (دراسة ومختارات)، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1988، ص 26

وتضافر أحداثها وأجوائها التخييلية والواقعية"[1]، تتشكل أساسا من عنصري الحدث والشخصية القصصية؛ حيث يعد الأول أساس، والثاني عنصر جوهري يقوم بدور هام ليعطي الحدث زخمه ويدفع به نحو التطور والنمو، ولو أن ثمة عنصر ثالث لم يعد ذا شأن في القصة الفنية المعاصرة وهو الحبكة.

إلا أن الشكل الفني المتطور للقصة العربية ارتبط بالقرن العشرين متأثرة بالقصة الأوروبية؛ فقد رأى بعض النقاد "أن القصة العربية في موضوعاتها، ومضامينها، واحتوائها على السير والتاريخ ترجع بأصول ثابتة إلى الأدب العربي دون نزاع، ولكنها كشكل أدبي محدد المعالم واضح القسمات له منهجه وأصوله، تعود إلى التراث القصصي الغربي الحديث"[2].

2- إرهاصات القصة في الجزائر وبذور نشأتها الأولى:

كانت بداية هذا الجنس متعثرة في الجزائر؛ إذ ارتبط بالمقامة والحكاية والمقالة القصصية أكثر من كونه قصة ناضجة فنيا، وقد حُسب ل"عبد الرحمن الديسي" بصمته الأولى في محاولته القصصية "المناظرة بين العلم والجهل" سنة 1908؛ حيث "لجأ الكاتب إلى هذا الضرب القصصي توقا إلى إشاعة حيوية في الحياة الأدبية الراكدة، وقد شرعت تتنفس بصعوبة منذ أواخر القرن التاسع عشر، فاستمد في هذا الإطار

[1] شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (1947-1985)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 1998، ص 10

[2] شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية، مرجع سابق، ص 14

القصصي عناصر في القص هي مزيج بين شكل الحكاية، والمقالة القصصية الاجتماعية، والمقامة الأدبية، مع بروز واضح لسمات هذه الأخيرة"[1].

بيد أنّ الباب فتح مشرعا للإنتاج الأدبي بعد ازدهار الصحافة الوطنية في الجزائر، فنشطت بذلك المقالة القصصية، إلى جانب الحكاية بأنواعها العامية والأدبية والدينية، وتعد مجلات جمعية العلماء المسلمين: "المنتقد، الشهاب، والبصائر"، بالإضافة إلى مجلة "الشعلة" لأحمد رضا حوحو المنصات الرائدة التي اهتمت بالإنتاج الأدبي واحتضنته لاسيما القصة، ويمكن أن نمثل لهذه الفترة بقصة "السعادة البتراء" لمحمد بن العابد الجلّالي (1890-1967) التي نشرها في مجلة الشهاب باسم "رشيد" المستعار، وهي مقالة قصصية تسرد قصة موظف لدى الإدارة الفرنسية رزق بمولود وهو في سن الخمسين من عمره بعد يأس أسماه "محمدا"، وفي اليوم ذاته رزق جاره بنتا أسماها "سعاد"، حيث تحكي القصة علاقتها التي نشأت منذ الصغر بين محمد وسعاد لتتطور إلى حب عفيف بينهما انتهى بالزواج برضا الوالدين. إذ عُدّت هذه القصة جرأة من لدن صاحبها في معالجة موضوع كهذا في مجلة معروفة بمحافظتها واتجاهها الديني.

وثمة فريق آخر أكبر يعطي شرف السبق في الفن القصصي ل"محمد سعيد الزاهري" بقصته "فرانسوا والرشيد". وهذا ما أكده عبد الملك مرتاض إذ يقول: "شهد الشهر السابع من سنة خمس وعشرين من هذا القرن* ميلاد القصة الجزائرية على يد محمد سعيد الزاهري، الذي نشر في جريدة الجزائر محاولة قصصية عنوانها "فرانسوا والرشيد".

[1] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا وأنواعا، وقضايا وأعلاما)، مرجع سابق، ص 164

* يقصد القرن العشرين لأنه ألّف كتابه في بداية العقد الأخير منه (1990)

ومنذ ذلك اليوم والقصة الجزائرية تدرج، ثم تحبو، ثم تنهض على ساقها، ثم تتطور بها الحياة، وتتقدم بها السبل إلى غاية الفن القصصي خطوات شاسعة"[1].

وقد اتخذت القصة الجزائرية في عهدها الأول مسارا إصلاحيا صريحا، حيث تصدى أبرز روادها "الزاهري" للفكر التبشيري، كما حارب أولئك الذين يزعمون علما بالدين وهم في جهلهم وأميتهم غارقون. "ويعد هذا الفن أبرز الفنون الأدبية رواجا ونضجا في الأدب الجزائري المعاصر، وذلك بعد بعدما تقلص سلطان الشعر عقب الحرب العالمية الثانية فاسحا المجال للأنواع الأدبية الجديدة، وخاصة القصة لتقوم بتصوير حياة الإنسان الجزائري في تطوره الفكري ونموه الاجتماعي والحضاري خلال حرب التحرير وعهد الاستقلال"[2]، وقد سارت القصة الجزائرية جنبا إلى جنب مع المقالة القصصية قبل أن تصل إلى مرحلة النضج لأنّ الهدف كان واحد وهو الإصلاح الاجتماعي.

3- نشأة القصة القصيرة وتطورها في الجزائر:

أدت الحرب العالمية الثانية دورا بارزا في استفاقة الشعب الجزائري عموما، وفي شحذ همم المثقفين خصوصا، و تفجير مواهب الكتّاب وتشييل قرائحهم بصفة أخص؛ فقد رفعت الستار عن رؤى جديدة ترضخ البحث عن قالب أكثر تصورا وأشد قوة في القصة القصيرة التي امتزجت فيها سمات تعبيرية عديدة بين حكاية ومقالة قصصية، وبين سيرة ذاتية في طابع حكاية؛ إذ "يمكننا القول أن القصة الجزائرية ظهرت في

[1] عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص7

[2] شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 5

صورتها الأولى على شكل مقال قصصي امتزجت فيه الأنواع الأدبية الأخرى كالمقامة والرواية والمقالة، وإنه نشأ في بدايته الأولى متأثرا -خصوصا في موضوعاته- بالمقال الديني الإصلاحي ولكنه ما لبث أن طور عنصر السرد والموضوعات الإصلاحية، فاعتنى في مرحلته الثانية بالحوار حتى يستجيب لكثرة الآراء واختلافها"[1].

ثم جاء مطلع الخمسينات ليحدث أحمد رضا حوحو ثورة في مفهوم القصة القصيرة، عندما أفاد من تجربته السابقة في التعامل مع الحدث القصصي وشخصياته، وذكاها بثقافته المعرفية والنظرية في الآثار الغربية، فتطلع إلى التنظير لهذا الجنس؛ حيث حاول أن يحدد ملامح الحدث القصصي والبطولة في القصة، كما وضع شرط الهدف الاجتماعي والأخلاقي على مستوى مضمونها. وقد صدرت مجموعته القصصية الأولى "صاحبة الوحي" إذ جاء في مقدمتها أنه لم يلجأ إلى الخيال بل انتزع شخصياته المعروفة من واقع معلوم.

ثم ما لبثت القصة الجزائرية القصيرة أن ظهرت بشكل ناضج مقنع - بعد اندلاع الثورة التحريرية الكبرى سنة 1945- مع استمرارية واضحة لشكل الحكاية والمقالة القصصية عند بعض كتابها مثل "أحمد بن عاشور" إذ بقيت متشبثة باللغة المباشرة سردا ووصفا، كما لم تتحرر من المضمون الإصلاحي الثوري، ومن الأمثلة عن ذلك: "لصوص وجبناء، تستاهل، في يوم إيقاف الحرب، لا أفارق الجزائر، ..."[2]؛ فقد "استعمل

[1] المرجع نفسه، ص 50

[2] نشرت مجلة آمال التابعة لوزارة الإعلام والثقافة الجزائرية أغلب محاولات "أحمد بن عاشور" في عدد كملحق مستقل في نوفمبر 1971

المبدعون الجزائريون أيام الثورة التحريرية أشكالا قصصية عديدة عرفها الأدب العربي في نهضته الحديثة، حيث وجدوا فيها أساليب جيدة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم، وأحداث بلادهم، كما اكتشفوا أنها تملك قدرا كبيرا من أدوات التعبير الفني التي تمكنهم من تصوير المعارك وكفاح الشعب ومهاجمة قوات الجيش الفرنسي"[1].

بيد أن القصة القصيرة بمفهومها الفني المعروف بدأت تظهر وتتطور في الخمسينات وبداية الستينات بأقلام عديدة قديمة وجديدة مع أحمد رضا حوحو، أبو القاسم سعد الله، الطاهر وطار، أبو العيد دودو وغيرهم، إلى أن صارت أكثر قوة وتأثيرا وطبعت بصمتها في الساحة الفنية والثقافية والفكرية الجزائرية.

ينظر: عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 191

[1] ينظر: شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية، مرجع سابق، ص 108

المحاضرة الثانية عشر: القصة الجزائرية (الخصائص الفنية، والمضامين)

1- الخصائص الفنية للقصة الجزائرية:

اتخذت القصة وجهة جديدة مسايرة الظروف المغايرة التي فرضتها الثورة التحريرية الكبرى على الواقع الجزائري، فقد أصبحت لها خصائص تميزها عن باقي الكتابات، فقد اتصفت "كثير من نماذج هذه المرحلة بعناصر القصة الفنية ومقوماتها كالإيحاء، والرمز، والابتعاد عن الأسلوب الخطابي، وعن الأسلوب المباشر في السرد، واهتم الكتّاب ببناء الشخصية، فلم تعد الشخصية ذات بعد واحد، إما رمزا للخير وإما رمزا للشر على نحو ما كانت عليه في القصة الإصلاحية، وإنما صارت تعبر عن الحياة الإنسانية وحقيقتها حيث يمتزج فيها الخير والشر"[1]

اتضحت معالم القصة الجزائرية بعد الستينات من القرن العشرين، فتطورت فيها الشخصيات وانسجمت وتناغمت، كما أن بناء الحدث فيها أصبح أكثر جاذبية ووضوحا، والأسلوب عربيا صافيا، أما الأزمنة والأمكنة فتشعبت وتعددت وتطورت مبشرة بنشأة الرواية الجزائرية الحديثة، حيث ظهرت مجموعات قصصية لكتاب جزائريين مع نهاية الخمسينات ومنارف الستينات في تونس والقاهرة، ثم في الجزائر بُعيد الاستقلال من مثل: "ظلال جزائرية" لعبد الحميد بن هدوقة، "دخان من قلبي" للطاهر وطار، "نفوس ثائرة" لمرباكيبي، "بحيرة الزيزفون" لأبو العيد دودو، و"على الشاطئ

[1] ينظر: شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية، مرجع سابق، ص 108

الآخر" لزهور ونيسي. و"هي مجموعات تضم إنتاجا كُتب معظمه في الخمسينات، وبعضه في مطلع الستينات، وكان أغلبه على مستوى قصصي فني جيد، مع استمرارٍ فيه لنماذج الفترة الأولى من النشأة، غير أنه يعكس عموما تطورا جيدا باتت فيه القصة الجزائرية نوعا أدبيا معتبرا في النثر الجزائري الحديث"[1]

وفصل القول وجماعه أنّ القصة تطورت تطورا ملحوظا من حيث عدد الكتاب، والمادة القصصية بداية من النصف الثاني من الخمسينات، ثم نضجت فنيا في الستينات على الرغم من غياب بعض الأسماء القصصية من الساحة الفنية، لكنها تدعمت بأسماء جديدة تلت هذه المرحلة أبرزهم "أبو العيد دودو"، "زهور ونيسي"، "عبد الحميد بن هدوقة"، و"الطاهر وطار"؛ وهم أنفسهم من حملوا لواء القصة في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، وكان حضورهم بيّنا، بالغ الأثر. "ونشير هنا أيضا إلى مسألة جديرة بالمعالجة والتناول وهي أنّ معظم كتاب القصة قد تحولوا بعد الاستقلال إلى الكتابة في فنون أدبية أخرى، أو توقف بعضهم عن الكتابة الأدبية لسنوات عديدة، إما بسبب الظروف الحياتية الجديدة وإما لتغير حوافز الكتابة التي كانت قبل الاستقلال شكلا من أشكال النضال ضد المستعمر"[2].

ونختم القول في هذا الصدد أن القصة الجزائرية في الأدب الجزائري الحديث نشأت على أيدي جيل الثورة وتطورت بفضل جهودهم، ثم واصلت دربها – ممتنّة لهم - نحو مسارها النهائي أو شبهه بعد أن بزغت شمس الحرية على أرض الجزائر الطاهرة

[1] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 186

[2] شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 129

المضمخة بدماء الشهداء، واستنشق الشعب عبق الحرية فعطرت الفجاج وظهر فريق من كتّاب القصة القصيرة المعاصرة الزمان العالية التقنيات، المشرئبة إلى الالتصاق بالواقع الاجتماعي الأكثر يومية تنهل من قصصه، وتستوحي من شخوصه.

2- مضامين القصة الجزائرية الحديثة والمعاصرة:

يمكننا تقسيم المضامين السردية التي حوتها القصة الجزائرية عبر مراحل نشأتها ونضوجها إلى قسمين اثنين:

أ) **المضمون الوطني:** حيث تعد تيمة الكفاح الوطني، وتصوير بطولات الشعب المقاوم للاستعمار من أبرز التيمات التي تناولها القاصون الجزائريون في أغلب قصصهم، وذلك قبل وأثناء وبعد الاستقلال، فالهدف واحد وهو تمجيد بطولات الشعب ورسم صور لسنوات النضال وتجسيد الصمود في وجه المحتل الغاصب الذي طبع كل فرد بصمته فيه فتكاثفت الجهود وتلاحمت جميع فئات المجتمع من شباب وكهول وشيوخ ونساء وأطفال وعمال ومثقفون وضحوا كلهم من أجل الوطن الغالي؛ فبرز في تفاصيل القصص تصادم قوى الشر بقوى الخير؛ فقد شكلت الثورة دافعا قويا دفع بالقصة إلى الأمام ومحفزا للكتابة في المضمون الوطني؛ فجادت قرائح الكتّاب بما وسعت من خيال وتصوير للواقع وترجمة لمعاناة الإنسان البسيط الذي أصبح بطلا لما قدّمه من تضحيات،

بالإضافة إلى تصوير حياة المجاهدين في الجبال ومشاركة المرأة إلى جانب الرجل في الكفاح.

ومن الكتّاب المعاصرين الذين دونوا وقائع الثورة في قصصهم بأساليب مختلفة هؤلاء الذين تحدث عنهم الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه القصة الجزائرية المعاصرة وهم: عبد الحميد بن هدوقة في "الأشعة السبعة"، أحمد منور في "عودة الأم"، مصطفى فاسي في "عندما تكون الحرية في خطر"، الحبيب السايح في "البيت الصغير"، وعثمان سعدي في "إجازة ابن الثوار"[1]

ب) المضمون الاجتماعي:

تعد التيمة الاجتماعية في القصة الجزائرية تسجيلا للأوضاع التي يعيشها الجزائري بصفة عامة قبل وبعد الاستقلال، حيث نجد في أغلب القصص التي عالجت المضمون الاجتماعي تصويرا لمحور الفقر الذي استحوذ على خيال كتّاب هذه المجموعات، إنه المحور الذي تشعبت منه القضايا الاجتماعية كالأرض، السكن والهجرة من أجل العمل، يقول الدكتور عبد الملك مرتاض: "فما هذه المشاكل الاجتماعية إلا ثمرة من ثمرات الفقر الجاثم"[2]

وسنستعرض فيمل يلي نماذج لمجموعات قصصية لكل قضية من القضايا الاجتماعية الثلاث:

[1] عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق

[2] عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 147

- قضية الأرض: جسدت بشكل أكبر واقع الفلاح، والإقطاعي، وكذا العلاقة المقدسة بين الإنسان و أرضه، من الأمثلة عليها: "قلبتان من شعير" و"الأرض لمن يخدمها" لأحمد منور، "السنابل" للحبيب السايح، و"وطلعت الشمس" لمصطفى الفاسي.
- قضية السكن: صورت مشكل السكن التي تمثل في انعدامه، أو ضيقه، أو حقارته، كما جسدت قضية نزوح البسطاء من الأرياف نحو المدن، ومن الكتاب الجزائريين الذين عالجوا هذه القضية نجد: مصطفى الفاسي في "الأضواء والفئران"، أحمد منور في "طلل" والحبيب السايح في "تحت السقف" و"هموم".
- قضية الهجرة: حيث يعد من القضايا الاجتماعية المعقدة التي اتجه صوبها القاص الجزائري وتناولها بشكل أو بآخر، حيث نجد - في المرتبة الأولى - بن هدوقة يعالجها في أربع من قصصه: "الرسالة"، "المغترب" من مجموعة الأشعة السبعة، و"الكاتب" و"ثمن المهر" من مجموعة الكاتب وقصص أخرى. ويليه في المرتبة الثانية مصطفى الفاسي في قصتين اثنتين هما: "المغترب" و"العائدون"، أما القاص الثالث فهو أحمد منور في قصة "أكل البصل" في مجموعته الصداع.

المحاضرة الثالثة عشر: فن الرواية في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر (النشأة، والتطور)

1- تمهيد:

ارتبطت الرواية -عموما والجزائرية بالتحديد- أول ما ارتبطت بالقصة نظرا للتشاكل والتشابه الحاصل بينهما في كل شيء؛ إذ يكمن الاختلاف فقط في الحجم؛ وعليه فإنه يمكننا القول أن ظهور الرواية الجزائرية كان متزامنا إلى حد بعيد ما ظهور القصة؛ بل ثمة أعمال اختلف النقاد في تصنيفها بين الجنسين في البدايات الأولى.

2- ميلاد الرواية الجزائرية وأهم محطاتها:

أ) الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية:

يعد نص "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" لـ محمد بن ابراهيم الصادر سنة 1849 من أهم النماذج التي ساهمت في نشأة الرواية في الجزائر على الإطلاق، وقد اختلف الدارسون في تصنيفها بين جنسي القصة والرواية أبرزهم الناقد عمر بن قينة الذي رأى فيها قصة شعبية مطولة تلوك الفصحى بالعامية؛ فهي "تحمل ظلال القصة الشعبية بجوّها ولغتها، وسمات الرواية الفنية التي أساء إليها خصوصا شيوع الدارجة(الجزائرية) فيها"[1]،

[1] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 197

لتليها -بعد قرابة قرن من الزمان- محاولة جريئة أخرى للكاتب المتمرد "أحمد رضا حوحو" موسومة بـ غادة أم القرى سنة 1947، يقترب فيها بالشكل اللازم من ملامسة الضوابط والآليات الحقيقية للحدث الروائي من ناحية الحجم والبناء، أهداها للمرأة الجزائرية عندما قال: "إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب... من نعمة العلم... من نعمة الحرية... إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود، إلى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة تعزية وسلوى"[1]، غير أنها ظلت بعيدة عن عمق التمثيل الروائي بحكم بسلطة الأحداث وعدم تعمقها بالشكل الذي تتطلبه الرواية؛ فجاءت "تعانق الفن الروائي بوعي قصصي وجدية في الفكرة والحدث والشخصيات والصياغة"[2]. إلا أنّه سرعان ما ظهرت أعمال سردية تقاربت أكثر فأكثر مع الرواية، أو لنقل فتحت الباب أمام الميلاد الحقيقي لأول عمل روائي مكتمل البناء؛ فكانت سنة 1951 قصة "الطالب المنكوب" لـ عبد المجيد الشافعي التي صورت قصة طالب جزائري في تونس، وكذا نص "الحريق" للقاص والروائي نورالدين بوجدرة، ذلك الذي تناول الواقع الجزائري تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الغاشم، فقصة "صوت الغرام" لـ محمد منيع سنة 1967، و"رمانة" لـ الطاهر وطار، إذ "اتسمت هذه الأعمال بمستواها الفني السليم في هذه الفترة المتقدمة من نشوء الرواية الجزائرية"[3] ، فاتحة الباب على مصراعيه لرواية "ريح الجنوب" لـ عبد الحميد بن هدوقة الصادرة سنة 1971م والتي عالج فيها معاناة العائلة الجزائرية الفقيرة ممثلة في الفلاحين البسطاء وما ترتب عن

[1] أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983، ص05

[2] عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 197

[3] المرجع نفسه، ص 198

سيطرة الإقطاعيين العابثين بروح الإنسانية والقيم الأخلاقية والأعراف الدولية، وهي الرواية التي أجمع الدارسون والنقاد أنها أول عمل روائي جزائري ناضج، مكتمل الأركان، محكم البناء، محترم للضوابط المعروفة لجنس الرواية. إنه النص الذي أمكن أن يُؤرَّخ في ضوئه لزمن تأسيس الرواية في الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية[1]، ليليه عدد معتبر من النصوص الإبداعية أبرزها رواية "ما لا تذروه الرياح" لـ محمد عرعار، و"اللاز" و"الزلزال" للطاهر وطار؛ حيث حُقّ لنا بظهورها الحديث عن تجربة روائية جديدة متقدمة، فالعقد الذي أعقب فترة الاستقلال مكّن الجزائر من الانفتاح الحر على اللغة العربية وجعل الكتّاب يقبلون على الكتابة الإبداعية السردية عموما والروائية بالتحديد معبّرين عن الواقع الجديد بتفاصيله وتحدياته وتعقيداته، إن بالرجوع إلى الماضي القريب موظفين للثورة التحريرية مرجعا، أو بالغوص في الواقع المعاش الجديد التي بدأت ملامحه تتجلى شيئا فشيئا في ضوء التغييرات الجديدة التي طرأت على الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية بعد استقلال البلاد. لتنساب بعد فترة السبعينات نصوص روائية لا حصر لها منها من تجاوزت شهرتها الإطار الجغرافي الوطني، والمغاربي، والعربي، إلى العالمية؛ نظير ما قدّمته وتقدمه للإرث الإنساني عامة، والجزائري والعربي بخاصة مهما تشعّب همّ الأوطان وتشظت شجونها.

كان هذا غيض من فيض عن مسار الرواية المكتوبة بالعربية في الأدب الجزائري، فماذا عن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية؛ تلك التي شكّلت المفارقة في تصدرها

[1] ينظر: بن جمعة بوشوشة، سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2005، ص 07

وذيوعها أكثر من الرواية الناطقة باللغة الأم للوطن، ونالت ما نالت من الجوائز والتقدير، والإجلال.

ب) الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

لم تكن الفترة الطويلة جدا التي مرت بها الجزائر مستعمرَة من طرف فرنسا يسيرة هينة؛ ذلك الغازي الذي لم يدّخر جهدا في ممارسته شتى أساليب القمع، والقتل الوحشي، والتحقير الثقافي ضد السكان الأصليين؛ كل هذا أو ذاك خلق أدبا كتب بلسان المستعمر، خاصة وأن القضاء على اللغة الأم كان هدفه الأسمى الذي ركز على تحقيقه بشتى الطرق، وبذل فيه جهدا غير يسير؛ مبتغيا من ورائه طمس الهوية العربية والقضاء على الشخصية الوطنية وإذابتها في بوتقة فرنسا وكيانها من خلال تشويه الثقافة ومنع التعليم بالعربية، بل تمادى حتى في محاولاته تنصير الشعب الذي ظل متماسكا صامدا، فنتجت إذّاك الرواية المكتوبة بالفرنسية في قلب الجزائر.

يجمع الدارسون الذين اهتموا بالأدب الجزائري الناطق بالفرنسية، يتصدرهم جون ديجو (Jean Déjeux) أنّ أول النصوص الروائية التي اضطلع بها الجزائريون إبان حقبة الاستعمار تعود إلى سنة 1891، و"تمثلت في قصة بعنوان "انتقام الشيخ"، مستقاة من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال"[1] ، غير أن الانطلاقة الحقة – حسب ذات المؤرخ- يمكن إرجاعها إلى سنة 1920 ممثلة في رواية "أحمد بن مصطفى

[1] Jean Dejeux, Situation de la Littérature Maghrébine d'Expression Française, O.P.U, Alger, 1982, p 18

القومي" التي ألفها القايد بن الشريف[1]؛ إذ عدّها البداية الأولى للأدب. لتتوالى بعدها الكتابات الروائية التي شكلت إرهاصا لفن سيكون له شأن كبير فيما بعد، وإذ لا يمكننا حصر جميع الأعمال الأولى فإننا نذكر بعضها كرواية "الزهراء" لـ عبد القادر حمو سنة 1925[2]، ورواية "مأمون أو مشروع مثل أعلى" لـ شكري خوجا سنة 1928[3]، وكذا الرواية التي نالت مبلغا من الشهرة لابن مدينة بشار الجنوبية محمد ولد الشيخ "مريم بين النخيل"[4]، سنة 1936، والتي عدها بعضهم البداية الفعلية للرواية الناضجة المكتوبة بالفرنسية.

والأكيد أن الكتابات الروائية بالفرنسية لم تتوقف عند هذه البدايات بل استمرت بمواضيع وقيم اجتماعية وسياسية وثقافية متميزة؛ حيث استطاعت أن تخط مسار الرواية الجزائرية من جهة، وأن تعبر بوعي تام عن الواقع الاجتماعي والحضاري للفرد من جهة أخرى.

لتأتي فترة الخمسينات التي يتفق جل الباحثين والنقاد على أنها كانت حاسمة في مسيرة الرواية الجزائرية الناطقة بالفرنسية، تظهر خلالها رواد كبار سموا بأعمالهم إلى مراتب

[1] أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، الجزائر، دط، دت، ص 84-85

[2] Hadj Hamou Abdelkader, Zohra-La femme du mineur, Ed, du monde moderne,(Aux Editeurs Associers), Paris, 1925

[3] Chukri Khoja, Mamoun-l'ébauche d'un idéal, Ed Radot, Paris 1928. Réédit par l'O.P.U, Coll, Textes anciens,Alger, 1992

[4] Mohamed Ould Cheikh, Myriem dans les palmes, Oran, Plaza, 1936

العالمية أمثال: محمد ديب، مولود معمري، كاتب ياسين، مولود فرعون، مالك حداد، آسيا جبار، رشيد ميموني، رشيد بوجدرة... وغيرهم.

أما عن دوافع الكتابة باللغة الفرنسية والتي أسالت الكثير من حبر النقاد، فيمكن أجمال أهمها فيما يلي:

-التقهقر الكبير الذي نال اللغة العربية جراء الممارسة الوحشية للمستعمر الفرنسي، حيث أصبح تعلمها والكتابة بها أمرا ثانويا.

-أغلب الطبقة المثقفة درست وتخرجت من المدرسة الفرنسية، وبالتالي فمن الطبيعي أن تكون كتاباتهم باللغة التي تعملوها في المدارس وارتبطوا بها علميا وإبداعيا.

-تعمد مخاطبة المستعمر باللغة التي يفهمها، وتصويره في صورته الحقة، وهزمه باللغة التي جاء بها غازيا. والتي أضحت غنيمة حرب* تتجاوز الهوية التاريخية إلى الهوية الحضارية.

سهولة الاطلاع على هذه النصوص من طرف المثقفين الجزائريين والفرنسيين والمجتمع الدولي، وكذا سرعة ترجمتها إلى لغات أخرى تسمح بالتعريف بالقضية الوطنية.

* العبارة الشهيرة لكاتب ياسين (la Langue Française est un Butin de Guerre)

المحاضرة الرابعة عشر: الرواية الجزائرية(الخصائص الفنية، والاتجاهات)

1-الخصائص الفنية للرواية الجزائرية:

تطورت الرواية الجزائرية تدريجيا منذ نشأتها الأولى إلى مبلغ النضوج، إذ اتخذت لنفسها مسارا متصاعدا من حيث الخصائص الفنية والجمالية، حيث تحولت شيئا فشيئا من اللغة المباشرة والبساطة في الطرح التي تصف الواقع أو تعيد تصويره بشكل بدائي بعيد كل البعد عن الرؤية الفنية الإبداعية في أحايين كثيرة إلى اللغة الفنية المبطنة بالمعاني، والتي تجنح إلى عوالم خفية تخييلية.

تميزت روايات السبعينيات بالمغامرة الفنية، والشجاعة في الطرح التي عززها الاستقلال، ونزوع المجتمع إلى الاستقرار، فارتدت الرواية ثوبا جديدا، حيث جمع الروائيون في هذه الفترة بين السياسة والإبداع فجاءت رواياتهم مثقلة بالهم السياسي، ومتحدثة بلسانه في أغلب الأحوال، وقد تسبب إغراق الرواية في هذا الاتجاه في فقدانها لكثير من فنيات الإبداع، وبدت الأعمال الأدبية عبارة عن تأريخ لكل المتغيرات والتطورات التي عاشتها الجزائر، وذلك بانخراط أكثر كتاب الرواية في المدرسة الواقعية الاشتراكية.

أما فترة ما بعد السبعينات فقد جدت معها تغييرا بينا لحال الرواية في الجزائر، وعلى الخصوص في الناحية الفنية التي تطورت، وأصبحت أكثر نضجا، كما ازدهرت جمالياتها اللغوية مستفيدة من اطلاع كتابها على تقنيات الرواية الجديدة على الصعيدين العربي

والعالمي، غير أن هيمنة البعد الأيديولوجي أعاق وبشكل واضح محاولات الخروج بالرواية من شكلها التقليدي الواقعي إلى شكل فني جديد أكثر جمالية وتحررا. هذه الصفة التي بدأت تظهر في روايات الشباب في التسعينات وما بعدها ولو أن رواية الأزمة اتسمت بما يميزها عن غيرها مما سبقها أو أتى بعدها مستجيبة للحالة الخاصة التي مرت بها البلد في كل المجالات.

ونخلص في الأخير إلى أن الرواية الجزائرية -المكتوبة بالعربية خاصة- أعادت صياغة المجتمع بعدّه "كيانا موضوعيا يتميز بوجوده المستقل عن الذات. لكن هذا الوجود ليس مفصولا تماما عن الذات المبدعة أو تحركه حتمية ميكانيكية، وإنما هي علاقة مؤسسة على صلة جدلية وثقى بين الأدب والواقع، صلة تعترف بدور الأدب في عملية التغيير وإنه لا قيمة لنص أدبي لا يحركه هاجس التغيير"[1]

2-اتجاهات الرواية الجزائرية:

اختلفت الاتجاهات التي اتخذتها الرواية الجزائرية منذ نشأتها باختلاف المواقف الفكرية والسياسية، حيث كان للتوجه السياسي للبلاد الأثر البالغ في توجيه الفكر والأدب، وهو أمر طبيعي يحدث في كل الأمم والأمصار، لأنّ الأدب يفترض أن يعكس الواقع، وعادة ما تتحكم السياسة في توجيه الواقع إيجابا وسلبا، "فقد سايرت الرواية الجزائرية الواقع، ونقلت مختلف التغييرات التي طرأت على المجتمع بحكم

[1] مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2000، ص 106

الظروف والعوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغيير، ومن الملاحظ أن الرواية الجزائرية قد صبغت بصبغة ثورية، خاصة الثورة ضد الاستعمار، كما سايرت النظام الاشتراكي وهذا ما نجده في عقد السبعينات، ودخلت الرواية فيما بعد مرحلة جديدة فيها ثورة ونضال وانهزام، إذ انطلق الكاتب من الواقع الذي عاشه وعايشه في زمن الأزمة فاصطلح عليه بـ: أدب الأزمة"[1]

فالخطاب الذي كان حاضرا في الواقع اليومي، وفي وسائل الإعلام بكل أنواعها في مرحلة السبعينات حدده الاتجاه السياسي والأيديولوجي الذي انتهجته البلد، ذلك أن المجتمع كان يرى فيه ما يجسد القيم الاجتماعية التي كان ينشدها الفرد.

لقد كانت وجهة الإبداع عامة والرواية بالتحديد وجهة سياسية أيديولوجية في هذه المرحلة، مثلها مثل القصة القصيرة، إذ أصبح للرواية بعدا اجتماعيا تدل عليه أدق التفاصيل فيها، "فالعمل الأدبي يوحي بدلالته تلك منذ قراءة عنوانه، فأنت عندما ترى الحوات والقصر على صفحة الغلاف، قد يتبادر إلى ذهنك هذا التوازي الأولي أو قل هذا التناقض بين فقر الحوات وغنى القصر، بين المحكوم والحاكم، بين المقموع والقامع، إلى غير ذلك مما يجعلك تحتمل منذ البداية علاقة غير متكافئة بين الطرفين"[2]

أما في مرحلة الثمانينات والتسعينات، فقد تحول مسار الرواية نحو اجتهاد تروم فيه تجاوز المواضيع الثورية بمفهومها الاجتماعي إلى ثورة على مستوى الأفكار تسعى من

[1] شادية بن يحي، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع
www.diwanalarab.com

[2] مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر، مرجع سابق، ص 13

خلالها إلى النط فوق المألوف استجابة لتغير الأوضاع السياسية وتدهور الاقتصاد، مما أنتج صراعا أيديولوجيا عصف بالحياة الفكرية والأدبية.

وقد توجه الروائيون -في هذه المرحلة العصيبة- صوب الشرق أو صوب الغرب بحثا مكانة بين هؤلاء أو أولئك ينشدون التغيير والتطور، "ولعل الإضافة التي جاءت بها البنيوية هي أنها نبهت إلى ضرورة انتشال الأدب من الفجاجة الواقعية والتسطيح ومكنت النقاد من استخدام أدوات راقية في التعامل مع النصوص"[1] ؛ مما أنتج روائيين ونقادا جددوا في النص الأدبي، وسموا به إبداعيا وفنيا، ومن النصوص الجديرة بالذكر في هذا المقام رواية "وقع الأحذية الخشنة" لواسيني الأعرج سنة 1981، وكذا روايته "نوار اللوز" سنة 1982، والتي أبدع في استثمار التناص داخلها مع "تغريبة ابن هلال"، وكتاب "إغاثة الأمة لكشف الغمة" للمقريزي[2]

وقد كان التمرد -على الواقع، وعلى القيم السائدة، والنمط العقيم- أو الرغبة فيه سمة الأعمال الروائية لفترة الثمانينات، وما رواية "زمن النمرود" لحبيب السايح سنة 1985 إلا دليلا على هذا مثل ما يشي به عنوانها وكذا رواية "عزوز الكابران" لمرزاق بقطاش سنة 1989، و"التي يقف فيها شيخ الجامع ودركي ضمن شخصيات الرواية يعد رمزا للتيار السلفي المتضامن مع النزعة الوطنية، ممثلا للفكرة الوطنية الموحدة في الجوانب الأيديولوجية المتباينة، في هذه الرواية يلتقي المعلم ونخو من الشخصيات الأساسية بهذا

[1] المرجع نفسه، ص 14

[2] ينظر: شادية بن يحي، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، مرجع سابق www.diwanalarab.com

الشيخ في الزنزانة وقت صلاة الظهر حيث يؤنب شيخ الجامع هذا المعلم ويخبره بأنه غير راض عنه، لأنه في رأيه لا يعلم الأطفال ما ينبغي تعليمه وهو أن يعلمهم الحقيقة وكذا التمرد على حاكم مثل عزوز الكابران"[1]، على أن سمة التمرد هذه صبغت أغلب النصوص، مع وجود عدد منها لن تختلف في مضمونها عن روايات النشأة في السذاجة والواقعية المفرطة.

وفي التسعينات واصلت الكتبة الروائية -خطاها المتعثرة، غير أنها أظهرت منحا جديدا فرضته ظروف الواقع المتأزم، على الرغم من ظهور بداياته الأولى مع عدد غير يسير من روايات الثمانينات التي كانت مثخنة بالتغييرات الهائلة التي عصفت بالبلد وشعبها من كل الجهات؛ "وما تردد في روايات التسعينات تصوير وضعية المثقف الذي وجد نفسه سجين بين نار السلطة وجحيم الإرهاب، وسواء كان أستاذا أم كاتبا أم صحفيا أم رساما أم موظفا، فإنهم يشتركون جميعا في المطاردة والتخفي وهم يشعرون دوما أن الموت يلاحقهم"[2].

وإذ نأتي -على سبيل المثال- بنماذج لنصوص مثلت هذه المرحلة نذكر: رواية "الشمعة والدهاليز" للطاهر وطار، و"تيميمون" لرشيد يوجدرة، ورواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج، و رواية "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق؛ وكلها روايات كنبت في العشرية السوداء وصورت الواقع الفظيع الذي عاشه الشعب الجزائري بمختلف أطيافه

[1] المرجع نفسه

[2] شادية بن يحي، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، مرجع سابق

وطبقاته[1]؛ والمؤكد والملموس أن الكتابة الروائية صورت ببراعة الواقع الذي فرضته المحنة الوطنية في مرحلة التسعينات.

[1] المرجع نفسه

قائمة المصادر و المراجع:

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم
المجلس العلمي للكلية
كلية الآداب العربي و الفنون

I – باللغة العربية:

1. ابن باديس : الآثار، ج4، جمع وتقديم: عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982

2. ابن رحمون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980

3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985

4. أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس ج 07، دار صادر، بيروت-لبنان، دط، 1968

5. أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983

6. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997

7. أحمد عوين، الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء لدينا الطباعة، والنشر، والإسكندرية. مصر ط1 2001

8. أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، الجزائر، دط، دت

9. أرسطو، الخطابة (الترجمة العربية القديمة)، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بدوي، وكالة مطبوعات الكويت، دار القلم، بيروت-لبنان، دط، 1979

10. إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994

11. بن جمعة بوشوشة، سردية التجريب وحداثة السرد في الرواية العربية الجزائرية، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2005

12. بوالصفصاف عبد الكريم.. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1980

13. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، المكتبة الثقافية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976

14. الحسين بن أحمد الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908

15. حسين خمري، الظاهرة الشعرية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001

16. رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، المملكة العربية السعودية، دط، دت

17. شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة (1947-1985)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998

18. شلتاع عبود شراد، حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985

19. صالح خرفي، رمضان حمود. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985

20. صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، دط، دت

21. الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة (دراسة ومختارات)، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1988

22. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت، ط1- 1971

23. عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، دط، دت

24. عبد الغاني خشنة، إضاءات في النص الجزائري المعاصر، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط1، 2013

25. عبد القادر بن محي الدين، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية، تح محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، ط2، 1995

26. عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983

27. عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 1974

28. عبد الله الركيبي، قضايا عربية من الشعر الجزائري المعاصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، دط، دت

29. عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990

30. عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983

31. عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(1925-1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983

32. العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتحقيق: د. شرفي أحمد الرفاعي، ط1، 1981

33. علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2003

34. عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990

35. عمار هلال، العلماء الجزائرين في البلاد العربية والإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1995

36. عمر بن قينة، فن المقامة في الأدب العربي الجزائري، دار المعرفة، دط، دت

37. عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث(تاريخا وأنواعا، قضايا وأعلاما)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2009

38. عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دط، دت

39. عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2014

40. فؤاد القرقوري، أهم مظاهر الرومنطقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، الدار العربية، تونس 1988

41. محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية-بيروت، ط2، 1999

42. محمد الصالح باوية، أغنيات نضالية، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012

43. محمد الصالح رمضان، سوانح وارتسامات عابر سبيل، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004

44. محمد العمري، في بلاغة الحجاج الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية- أفريقيا الشرق، المغرب، ط 2، 2002

45. محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار الهدى، الجزائر، دط، 2010

المجلس العلمي للكلية

46. محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، المطبعة التونسية، تونس، ط2، 1345هـ 1936

47. محمد بن سمينة، في الأدب الجزائري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 2003

48. محمد طمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ب ط، 1983

49. محمد غنمي هلال، الرومانتيكة، دار العودة، بيروت-لبنان، ط1، 1973

50. محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983

51. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1985

52. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائريةمن1847 إلى 1939 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر

53. محمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1985

54. مخلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزائر (دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2000

55. مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2007

56. مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس (قصيدة الذبيح الصاعد)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983

57. نزار قباني، الشعر بديل أخضر، منشورات نزار قباني، دط، دت

58. نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرؤى والتحرير، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009

59. ينظر: عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكوناته السردية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2017

II _ باللغة الفرنسية:

60. Chukri Khoja, Mamoun-l'ébauche d'un idéal, Ed Radot, Paris 1928. Réédit par l'O.P.U, Coll, Textes anciens,Alger, 1992.

61. Hadj Hamou Abdelkader, Zohra-La femme du mineur, Ed, du monde moderne,(Aux Editeurs Associers), Paris, 1925.

62. Jean Dejeux, Situation de la Littérature Maghrébine d'Expression Française, O.P.U, Alger, 1982.

63. Mohamed Ould Cheikh, Myriem dans les palmes, Oran, Plaza, 1936.

III- المقالات، الأطاريح، والمواقع الإلكترونية:

64. كمال عجالي، الطيب العقبي أديبا، مخطوط أطروحة دكتوراه دولة، جامعة باتنة، 1998/1997م

65. مجلة البرق عدد5، لـ 4 أفريل1927، وعدد 12، لـ 23 ماي 1927

66. مجلة آمال التابعة لوزارة الإعلام والثقافة الجزائرية أغلب محاولات "أحمد بن عاشور" في عدد كملحق مستقل في نوفمبر 1971

67. شادية بن يحي، الرواية الجزائرية ومتغيرات الواقع، موقع:

www.diwanaladab.com

68. أحمد الأكحل، ما هو الشعر ،جريدة النجاح، عدد 828، 20مارس 1929

69. مجلة الشهاب ج2، عدد 6مارس1930

70. بجريدة الأمة، عدد 43(1935/9/24)

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم - المجلس العلمي للكلية - كلية الآداب العربي و الفنون

فهرس الموضوعات

تصدير

..... 2 ...

مقدمة

..... 3 .

المحاضرة الأولى: مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث والمعاصر.....6

أولا: الشعر الجزائري الحديث والمعاصر

المحاضرة الثانية: لمحة حول الشعر الجزائري الحديث والمعاصر

(الخصائص والأسلوب)..... 12

المحاضرة الثالثة: الاتجاه الإصلاحي (المدلاية والمنحى) 16

المحاضرة الرابعة: الاتجاه الإصلاحي (نماذج وموضوعات) 24

المحاضرة الخامسة: الاتجاه الثوري 32

المحاضرة السادسة: الاتجاه الوجداني

..... 40

ثانيا: النثر الجزائري الحديث والمعاصر

المحاضرة السابعة: لمحة حول النثر الجزائري الحديث والمعاصر

(الخصائص، الأسلوب، والأنواع)..... 54

المحاضرة الثامنة: فن الرحلة في الأدب الجزائري 60

المحاضرة التاسعة: فن الخطابة في الأدب الجزائري 72

المحاضرة العاشرة: فن المقال في الأدب الجزائري 80

المحاضرة الحادية عشر: فن القصة في الأدب الجزائري (النشأة، والتطور)..... 85

المحاضرة الثانية عشر: القصة الجزائرية (الخصائص الفنية، والمضامين) 91

المحاضرة الثالثة عشر: الرواية الجزائرية(النشأة، والتطور) 96

المحاضرة الرابعة عشر: الرواية الجزائرية(الخصائص، والاتجاهات) 102

مسرد المصادر والمراجع 108

فهرس الموضوعات

..... 118

المجلس العلمي للكلية